

## ذكر فتح حصن برزية:

ثم سار السلطان من شغري إلى برزيه، وهي قلعة حصينة في غاية القوة والمنعة على سن جبل شاهق يضرب بها المثل في جميع بلاد الأفرنج والمسلمين، يحيط بها أودية من سائر جوانبها، وذرع علو تلهها، فكأن خمسمائة ذراع ونيفاً وسبعين ذراعاً.

وقال العماد: وكان وصول السلطان إليها يوم السبت الرابع والعشرين من جمادى الآخرة، وملكها يوم الثلاثاء السابع والعشرين منه.

قال: فأحدقنا بها وبالجبل ونصبنا عليها المجانيق في سفحها، ولما رأى السلطان أنه لا وصول إليها بالمجانيق، وأن الاشتغال بها يطيل الزمان، مال إلى الزحف، فقسم الناس ثلاثة أقسام، وجعل النوبة الأولى لعماد الدين زنكي صاحب سنجار، والملك العادل، وتقدم السلطان بنفسه في النوبة الثانية، واشتد القتال، وضاق بها الحال، ولما أيقنوا بأنهم ملكوا طلبوا الأمان، وكفوا عنهم، وكانت زوجة صاحب حصن برزية أخت زوجة الابرنس صاحب أنطاكية، وقد سبيت وخبيت، فما زال السلطان يطلبها حتى أظهرها وأحضرها فمنّ عليها بالاعتاق، وحل عنها وعن زوجها قيد الوثاق، وأحضر أيضاً ابنة لهما وزوجها وعدة من أصحابهم، وأدخلهم معها في الاطلاق وسير معهم إلى أنطاكية من أوفدهم على أهلهم، فسرت زوجة البرنس بأختها.

وفي المرأة: وكانت زوجة صاحب حصن برزيه عين للسلطان على الفرنج، والسلطان كان يرى إليها ويلطفها، ولما فتحت القلعة أسرها السلطان وزوجها وأولادها، فأحسن إليهم وأطلقهم، وبعث معهم من أوصلهم إلى أنطاكية، فزادت محبتها للسلطان ومناصحتها له، وأنعم السلطان بهذا الحصن على عز الدين المذكور عن قريب.

## ذكر فتح قلعة دربساك:

ولما رحل السلطان من حصن برزية عبر من عند شقيف دركوش إلى شرقي العاصي، وجاء إلى جسر الحديد، وأقام هناك أياماً حتى تلاحق به العسكر، ثم سار إلى دربساك، ونزل عليها يوم الجمعة الثامن من شهر رجب وهي قلعة منيعة مرتفعة، وهي عش الداوية، وقاتلها قتالاً شديداً، وضايقتها مضايقة عظيمة، وأمر بالنقب تحت برج، وتمكن النقب منها حتى وقع، وحموه بالرجال المقاتلة، ووقف في الثغرة رجال يحمونها ممن يصعد فيها.

قال صاحب النوادر: ولقد شاهدتهم وكلما قتل منهم رجل قام غيره مقامه، وهم قيام عرض الجدار مكشوفين إلى أن اشتد بهم الأمر حتى طلبوا الامان فأمنهم السلطان، وشرط عليهم أن ينزلوا بأنفسهم وبثياب أبدانهم لاغير، فعند ذلك رقا عليها العلم الاسلامي يوم الجمعة أيضاً الثاني والعشرين من رجب وأعطاهم لعلم الدين سليمان بن جندر، ثم سار عنها بكرة السبت الثالث والعشرين من رجب متوجهاً إلى بغراس.

## ذكر فتح قلعة بغراس:

وهي قلعة منيعة على رأس جبل شامخ قريبة من أنطاكية، كثيرة العدة والرجال، فنزل العسكر في مرج لها وصعد السلطان في جريدة عسكره إلى الجبل، ووقف بازاء الحصن، فنصب عليه المجانيق من جميع جهاته، وعين يركاً بجانب انطاكية كيلا يحصل التشويش من جهة انطاكية، فضرب اليزك على باب انطاكية بحيث لا يقدر أحد أن يخرج منها.

وقال صاحب النوادر: وأنا كنت في اليزك في بعض الايام، ولم يزل السلطان يقاتل أهل بغراس مقاتلة شديدة حتى ضاق بهم الحال، فخرج

مقدم الداوية يستأذنه في الحضور، فأذن له، ولما حضر طلب الامان فأمّنهم السلطان على حكم دريساك، ورقا العلم السلطاني عليها في الثاني من شعبان، ثم سلم السلطان قلعة بغراس لعلم الدين سليمان المذكور آنفاً، فتسلم الحصنين: دريساك وبغراس، وكان علم الدين هذا صاحب أعزاز وتسلمها بذخائرها، ووجد في بغراس خاصة من الغلة اثني عشر ألف غرارة، سوى ما فيها من سائر الاقوات.

### ذكر مهادنة صاحب انطاكية:

ولما فرغ السلطان من أمر بغراس عزم على التوجه إلى أنطاكية، وكان الابرنس صاحبها عجل بارسال أخي زوجته يسأل من السلطان المهادنة والصلح على أن يطلق كل أسير عنده، وأجابه السلطان إلى ذلك، ووقع الصلح إلى ثمانية أشهر، وكان الابرنس هذا من أعظم ملوك الافرنج في هذه البلاد، وكان أهل اطرابلس سلموا إليه اطرابلس أيضاً بعد موت القومص صاحبها، وجعل الابرنس ابنه في اطرابلس.

وقال صاحب النوادر: وكانت هدنتهم إلى سبعة أشهر على أنه إن جاءهم من ينصرهم وإلا سلموا البلدان إلى السلطان رحمه الله.

### ذكر رحيل السلطان متوجهاً إلى دمشق:

لما فرغ السلطان من أمر بغراس ومهادنة صاحب أنطاكية رحل قاصداً الشام، فأتى حلب ودخلها في حادي عشر شعبان، ثم أعطى دستوراً للعسكر، وودع عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي بعد أن أنعم عليه بأنواع التحف والامتعة والدواب، ويقال إنها دخل السلطان حلب لان ولده الملك الظاهر سأله ذلك، فأتاها وأقام بقلعتها ثلاثة أيام، وولده يقوم بالضيافة حق القيام، ولم يبق من العسكر إلا من ناله شيء من نعمته، وبالغ في ذلك حتى أشفق عليه والده، ثم سار السلطان

من حلب في رابع عشر من شعبان قاصداً دمشق فاعترضه ابن أخيه الملك المظفر تقي الدين، وأصعده إلى قلعة حماة، واصطنع له طعاماً حسناً، وأحضر له سماع الصوفية، وبات فيها ليلة واحدة، وأعطاه السلطان جبلة واللاذقية، ثم سار على طريق بعلبك حتى أتاه، وأقام بمرجها يوماً ودخل إلى حمامها، ثم سار منها حتى أتى دمشق قبل دخول رمضان بأيام يسيرة، فأقام بها حتى دخل رمضان، وما كان يرى تبطيل وقته عن الجهاد مهما أمكن، وكان قد بقي له من القلاع القريبة من حوران التي يخاف عليها من جانبها: صفد وكوكب، فرأى أن يشغل الزمان بفتح المكانين في الصوم.

وقال ابن كثير: ولما دخل السلطان دمشق أشاروا عليه بتفريق العسكر ليريحوا ويستريحوا، فقال السلطان: إن العمر قصير، والاجل غير مأمون، فخرج من دمشق لغزوته في أوائل رمضان يريد صفد.

### ذكر فتح صفد:

ولما خرج من دمشق أتى على صفد في أثناء شهر رمضان، وهي قلعة منيعة قد تقاطع حولها بالآودية، فأحرق العسكر بها، ونصب المجانيق، ولم يزل القتال متواصلاً بالنوب مع الصوم حتى سلموها بالآمان في الرابع عشر من شوال من هذه السنة.

### ذكر فتح قلعة كوكب

ولما فرغ السلطان من أمر صفد سار إلى كوكب وعليها الأمير قايباز النجمي وقد ذكرنا ان السلطان خلاه عليها يحصرها، ونزل السلطان على سطح الجبل، ووجد العسكر وأحدقوا بالقلعة وضايقوها بالكلية، وكانت الأمطار متوالية، والوحول كثيرة بحيث تمنع المشي والراكب إلا بمشقة كبيرة، وعانى السلطان شدائد وأهوالاً من شدة الرياح وتراكم الأمطار،

وكون العدو متسلطاً عليهم بعلو مكان، وجرح خلق من العسكر وقتل جماعة، ولم يزل السلطان راكباً مركب الجدد حتى تمكن النقب على سورها، ولما أحسوا بالنقب وقد تمكن علموا أنهم مأخوذون فطلبوا الأمان إلى ذلك وأمنهم وتسلمها في منتصف ذي القعدة، وسير أهلها إلى صور، وكان اجتماع أهل هذه القلاع كلها في صور.

وقال ابن كثير: وكان حصن كوكب معدن الاستبارية، كما ان صفد معدن الداوية، وكانوا أبغض أجناس الأفرنج إلى السلطان، لا يكاد يترك منهم أحداً إذا وقع من المأسورين، ولما فتحت قلعة كوكب عرضها السلطان على جماعة فلم يقبلوها، وتولاها قايماز النجمي عن كراهة.

### ذكر فتح الكرك:

لما كان السلطان سار إلى البلاد الشمالية جعل على الكرك وغيرها من حاصرها أخاه الملك العادل في تلك البلاد يباشر ذلك، فأرسل أهل الكرك يطلبون الأمان، فأمر العادل المباشرين لحصارها بأن يتسلموها فتسلموا الكرك والشوبك وغيرها مما في تلك الجهات.

وقال العماد: وكان الملك العادل مقيماً بتبنين بالعسكر تحزراً على البلاد من غائلة الفرنج، مقوياً للامراء المرتين على الحصون، وكان صهره سعد الدين كمشبه بالكرك موكلاً وبأهله منكلاً، فتوسلوا بالملك العادل حتى دخلوا في الحكم، وخرجوا على السلم، وكان فتح الكرك في أثناء شهر رمضان.

وفي تاريخ بيبرس: قد كان الملك الناصر صلاح الدين رتب على الكرك العساكر صحبة سعد الدين كمشبه، صهر الملك العادل فحاصروها ليلاً ونهاراً مدة حتى فنيت منها الأزواد، وأكل أهلها جميع

الحيوان الذي عندهم، فأذعنوا للتسليم وسلموا، وكفى الله المسلمين شرهم.

## ذكر مافعل صلاح الدين بعد هذه الفتوحات في هذه السنة:

قد ذكرنا أنه لما فرغ من أمر بغراس ومهادنة صاحب أنطاكية توجه إلى دمشق، وجعل طريقه على حلب، وكان معه الامير قاسم بن مهنا أمير المدينة، وكنيته أبو فليته الحسني، وكان ميمون النقيبة، مبارك الطلعة، وكان السلطان قد تيمن بطلعته، فما حضر معه بلداً إلا فتحه، ثم جعل السلطان طريقه على المعرة، فزار قبر عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، والشيخ أبا زكريا المغربي.

وقال العماد الكاتب: ولما خرجنا من حلب على قبر عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، قصد السلطان زيارة الشيخ الفقيه الزاهد التقي أبي زكريا المغربي، وكان مقيماً هناك، وكان من عباد الله الصالحين وله كرامات ظاهرة، وكان القاضي الفاضل مع السلطان في هذه المواقف المذكورة، فكتب عن السلطان إلى أخيه سيف الاسلام صاحب اليمن يستدعيه إلى الشام لنصرة أهل الاسلام، فإنه قد عزم على حصار أنطاكية بنفسه، ويكون تقي الدين حاصراً طرابلس إذا نسلخ هذا العام، ثم عزم القاضي الفاضل على الدخول إلى الديار المصرية، فسار السلطان معه لتوديعه، ثم عدل السلطان إلى القدس الشريف، فصام فيه الجمعة وعيد فيه عيد الاضحى، ثم سار ومعه أخوه الملك العادل إلى عسقلان، ثم أقطع أخاه الكرك عوضاً عن عسقلان، وأمره بالانصراف ليكون عوناً لابنه الملك العزيز في الديار المصرية، على حوادث الزمان، ثم عاد السلطان فأقام بمدينة عكا حتى انسلخت هذه السنة.

وفي النواذر: وكان دخول السلطان بيت المقدس، وصحبه أخوه الملك

العادل في ثامن ذي الحجة من هذه السنة وصليا الجمعة في قبة الصخرة الشريفة، وصليا صلاة العيد بها يوم الأحد، ثم عاد السلطان إلى خيمته، وأمضى بقية يومه، ثم سار يوم الاثنين الحادي عشر من ذي الحجة طالباً عسقلان لينظر في أحوالها ويودع أخاه، فأقام بها أياماً يلم شعنها، ويصلح أحوالها، وودع أخاه العادل، وأعطاه الكرك وأخذ منه عسقلان، ثم عاد يطلب عكا على طريق الساحل، فأقام بها إلى أن مضى أكثر المحرم من السنة الآتية، ورتب بها بهاء الدين قراقوش والياً، وأمره بعمارة السور والاطناب فيه، ومعه حسام الدين بشارة، ثم سار يريد دمشق بعد وصول طائفة من عسكر مصر أودعهم في عكا مدد حفظها، ودخل دمشق في مستهل صفر من السنة الآتية على ما ذكره إن شاء الله تعالى.

### ذكر بقية الحوادث:

منها أن طائفة من الرافضية بمصر خرجت يريدون ان يعيدوا دولة الفاطميين الذين حكموا في الديار المصرية والشامية وغيرهما، واغتموا غيبة الملك العادل عن مصر، واستخفوا بأمر الملك العزيز عثمان ابن السلطان صلاح الدين فبعثوا اثني عشر رجلا ينادون في الليل: يا آل علي، على أن العامة تجيبهم إلى ما عزموا عليه، فلم يلتفت إليهم أحد، فلما رأوا ذلك انهزموا فأدركوا وأخذوا وقيدوا وحبسوا، ولما بلغ أمرهم إلى السلطان ساءه ذلك، وكان القاضي الفاضل عنده بعد، ولم يفارقه لاجل سفره إلى مصر، فقال له: أيها الملك ينبغي أن تفرح ولا تحزن، فإنه لم يصغ إلى دعوة هؤلاء الجهلة أحد من رعيتك ولا التفؤوا إليهم، ولو أنك بعثت من قبلك جواسيس يختبرون رعيتك لسرك ما بلغك عنهم، فسرى به عنه ذلك، ورجع إلى قوله، ولهذا أرسله إلى مصر ليكون له عينا وعونا ومعينا...

## ذكر من توفي فيها من الأعيان:

أسامة بن منقذ: وهو أبو المظفر أسامة بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني الكلبي الشيزري، الملقب مؤيد الدولة، مجد الدين، من أكابر بني منقذ أصحاب قلعة شيزر وعلمائهم وشجعانهم، له تصانيف عديدة في فنون الادب، وله ديوان شعر في جزئين، ذكره ابن المستوفي وأثنى عليه، وعده في جملة من ورد عليه، وأورد له مقاطيع من شعره.

وذكره العماد في الخريدة، وقال بعد الثناء عليه: سكن دمشق، ثم رماه الزمان إلى حصن كيفا، فأقام بها حتى ملك السلطان صلاح الدين دمشق، فاستدعاه، وقد شيخ، فجاوز الثمانين، وقال العماد: وكنت أتمنى أبداً لقياه حتى لقيته في صفر سنة إحدى وسبعين، وسألته عن مولده فقال: يوم الاحد السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة بقلعة شيزر، وتوفي ليلة الثلاثاء الثالث والعشرين من شهر رمضان سنة أربع وثمانين وخمسمائة بدمشق، ودفن من الغد بجبل قاسيون، وتوفي والده أبو أسامة مرشد سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة.

وقال ابن خلكان: فرأيت ديوانه بخطه ونقلت منه:

لا تستقر جلدأعلى هجرانهم  
فكواك تضعف عن صدود دائم  
واعلم بأنك إن رجعت إليهم  
طوعاً وإلحاحاً عودت عوداً غم

وقال: ونقلت من خطه لنفسه وقد قلع ضرسه، وقال: عملتها ونحن بظاهر أخلاط، وهو معنى غريب يصلح أن يكون لغزاً في الضرس: وصاحب لأمل الدهر صحبتته  
ليشقى لنفعي ويسعى سعي مجتهد

لم ألقه منذ تصاحبنا فحين بدأ  
لنا ظري افترقنا فرقة الأبد .

ويروى: فذ وقعت عيني عليه افترقنا فرقة الأبد.....

## فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الخامسة والثمانين بعد الخمسائة:

استهلت هذه السنة والخليفة الناصر لدين الله والسلطان صلاح الدين يوسف مقيم على عكا، والأمر مستقيم، فوصل إليه جماعة من مصر، فأمرهم بالاقامة فيها محافظة على الحماية، وأمر بهاء الدين قراقوش بإتمام بناء السور وولى الأمير حسام الدين بشارة بعكا والياً، ثم خرج السلطان وسار على طبرية ودخل دمشق مستهل صفر من هذه السنة.

وفي تاريخ بيبرس أن السلطان قدم عكا في أول هذه السنة، والصحيح أن السنة دخلت وهو مقيم على عكا.

وذكر صاحب النوادر أنه كان مع السلطان، وأنه وصل إلى عكا في أواخر ذي الحجة من السنة الماضية، وأنه أقام بعكا معظم المحرم من سنة خمس وثمانين وخمسائة، ثم سار حتى دخل دمشق في مستهل صفر منها، وأقام حتى دخل ربيع الأول.

وفيه جاء رسل الخليفة إليه كما نذكره إن شاء الله تعالى:

## ذكر خروج السلطان صلاح الدين لأجل شقيف أرنون:

قال ابن كثير: أقام السلطان شهر صفر في دمشق، ثم خرج منها في ثالث ربيع الأول يوم الجمعة وأتى مرج برغوث، وأقام به إلى يوم السبت حادي عشر الشهر، ثم رحل على سمت بانياس، وأتى مرج عيون، وخيم

بقرب الشقيف وذلك يوم الجمعة سابع عشر ربيع الاول، وكان الشقيف في يد صاحب صيدا أرناط، فنزل إلى خدمة السلطان، وبذل له تسليم الشقيف بعد مدة ضربها خديعة منه، فلما بقي للمدة ثلاثة أيام استحضره السلطان فقال له في التسليم، فقال: لا يوافقني عليه أهل الحصن، فأمسكه السلطان وبعث به إلى دمشق فحبس بها، ثم تحول السلطان من نخيمه إلى أعلى الجبل يوم الاربعاء الثامن من رجب لمحاصرة الحصن، ورتب له عدة من الامراء وأمرهم بملازمته في الصيف والشتاء إلى أن تسلمه بعد سنة بحكم السلم، وأطلق صاحبه، وأجرى عليه حكم الحكيم.

وفي تاريخ بيارس: لما نزل إلى السلطان صاحب الشقيف، وهو أرناط صاحب صيدا، أظهر الطاعة والمودة، وقال: أنا محب لك ومعترف باحسانك، وأخاف أن يعرف المرئيس صاحب صور ما بيني وبينك، فينال أولادي وأهلي منه أذى فانهم عنده، وأشتهي ان تمهلني حتى أتوصل إلى تخليصهم، وحينئذ أحضر أنا وإياهم إلى خدمتك ونسلم الحصن، وأكون في خدمتك، ونقنع بما تعطينا من اقطاع، فظن صدقه، فأجابه إلى ماسأل، وأقام بمرج عيون ينتظر الميعاد، وهو قلق مفكر لقرب المدة، أعني مدة المهادنة التي بينه وبين صاحب أنطاكية، فأمر تقي الدين ابن أخيه أن يسير فيمن معه من عساكره وعساكر الشرق ويكون مقابل أنطاكية لئلا يغير صاحبها على بلاد الاسلام عند انقضاء مدة الهدنة، وكان بلغه ان الفرنج اجتمعوا بمدينة صور، وما يتصل بهم من الامداد في البحر، وأن صاحب عسقلان الذي كان أسره ومن عليه اجتمع مع المرئيس بصور وأنهم خرجوا في خلق لا تحصى، وكان يخشى أن يترك الشقيف وراء ظهره ويتقدم الى صور وفيها الجموع المتوفرة فتقطع الميرة عنه، وكان أرناط صاحب الشقيف يجتهد في تحصينه وتحصيل ما يقويه من الاقوات والسلاح، وبلغ ذلك الناصر فأحضره قبل انقضاء المدة فقال: تسلم الحصن، فاعتذر، وذكر ما ذكرناه الآن.

وقال صاحب النوادر: نزل صاحب الشقيف بنفسه، فما حسنا به الا وهو قائم على خيمة السلطان، فأذن له فدخل واحترمه وأكرمه، وكان من كبار الافرنج وعقلائها، وكان يعرف بالعربي، وعنده اطلاع على شيء من التواريخ والاحاديث.

قال: وبلغني أنه كان عنده مسلم يقرأ له ويفهمه، وكان عنده ثان، فحضر بين يدي السلطان وأكل معه الطعام، ثم خلا به وذكر أنه مملوكه وأنه يجب طاعته، وأنه يسلم المكان إليه من غير نقب، واشترط أن يعطى موضعاً يسكنه بدمشق، فإنه بعد ذلك لا يقدر على مساكنة الافرنج، وكان قد تردد الى الخدمة ثلاثة أشهر من تاريخ اليوم الذي أتى إليه، وكان كل وقت يناظرنا في دينه وناظره في بطلانه، وكان حسن المحاوره متأدياً في كلامه.

### ذكر ما تجدد للسلطان مدة اقامته بمرج عيون من الاحوال:

وبلغه أنه اجتمع من كان سلم من الافرنج على ملكهم الذي خلص من الاسر، وقالوا: نحن في جمع خارج عن الحصر وقد تواصلت الينا امداد من البحر فانفض بنا إلى ازالة هؤلاء عنا، وجاء من كان بطرابلس وخيموا على صور، وجرت بين المرکيس المقيم بها وبين الملك مراسلات، فلم يمكنه من دخول البلد، ثم احتج أنه من قبل الملوك الذين من وراء البحار، وأنه منتظر لما يبرمونه من الامر، ثم اتفقوا على أن يقيم المرکيس بصور، وأنهم يجتمعون على حرب المسلمين وقتالهم، ويتساعدون على رم ما تشعث من أموالهم ويقصدون بلداً اسلامياً من الساحل والمرکيس يمدهم من صور بالمدد بعد المدد، وبجميع ما يحتاجون إليه من الميرة والاسلحة والعدد، ووصل هذا الخبر يوم الاثنين السابع عشر من جمادى الاولى من اليزك، قالوا: إن جمع الفرنج قد نهض كالليل المعتكر، وأنهم

على قصد صيدا للحصر، فركب السلطان في الحال، فقبل وصول السلطان التقت اليزكية بهم فكسرتهم، وأسروا منهم سبعة من سباعهم، واستشهد من المماليك الخواص أيبك الاخرس، وقد كان شجاعاً شهياً، وانفصلت الحرب قبل وصول السلطان، وعاد السلطان الى خيم ضربت له بقرب اليزك، وأقام الى يوم الاربعاء تاسع الشهر، وركب في ذلك اليوم ليطلع في الجبل على القوم، ولم يكن له نية القتال، فلم يستصحب معه من يستظهر به من الرجال، وتبعه خلق كثير من غزاة البلاد بغير علمه وظنوا أن السلطان إنما ركب للقتال، وعلى عزمه، وكان الفرنج قد بصروا بالقوم فطمعوا فيهم، ونفذ السلطان بعض الامراء الى الغزاة الرجالة ليعودوا فما قبلوا، وحمل عليهم العدو فأسروهم وقتلوهم وختم الله لهم بالشهادة، وحمل الحاضرون من الامراء والعسكر على الافرنج حملة واحدة، وتزاحوا على الجسر فغرق منهم زهاء ثمانين في النهر، والحرب سجال، فيوم لنا ويوم علينا، ولم يكن لاولئك الفرقة بقتال الفرنج درية، وبمن لقي الله بالشهادة وختم له بالسعادة الامير غازي سعد الدولة بن مسعود ابن البصارو، وكان شاباً شجاعاً، فلم يصب الكفار، من المسلمين مذ أصيبوا غير هذه الكرة.

وفي النواذر: لما كان يوم الاثنين السابع عشر من جمادى الاول بلغ السلطان من جانب اليزك أن الفرنج قد قطعوا الجسر الفاصل بين أرض صور وأرض صيدا، وهي الارض التي نحن عليها، فركب السلطان وصاح الجاوش بالناس، فركب العسكر يريدون نحو اليزك، فوصل العسكر وقد انفصلت الوقعة، وذلك أن الفرنج عبر جماعة منهم الجسر، فنهض لهم اليزك الاسلامي، وكانوا في عدة وقوة فقاتلوهم قتالاً شديداً، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وجرحوا أضعاف ماقتلوا، ورموا جماعة فغرقوا، ولم يقتل من المسلمين الا مملوك للسلطان يعرف بأيبك الاخرس، وكان شجاعاً باسلاً مجرباً للحرب ممارساً، تقنظر به فرسه، فلجأ إلى صخرة فقاتل بالنشاب حتى فني، ثم بالسيف حتى قتل جماعة، ثم تكاثروا

عليه فقاتلوه، ووجد السلطان عليه لمكان شجاعته، وعاد السلطان من الوقعة إلى نخيم ضرب له قريب المكان، وأقام هناك إلى يوم الاربعاء تاسع عشر جمادى الاولى المذكور، وركب يتشوف على القوم على عادته فتبعه خلق عظيم من الرجالة والغزاة والسوقة، وأمر السلطان بردهم فلم يرتدوا، وذلك لأن المكان كان صعبا ليس للرجالة فيه ملجأ، ثم هجم الرجالة على الجسر، وناوشوا العدو، وعبر منهم جماعة إليهم، وجرى بينهم قتال شديد، واجتمع من الفرنج خلق كثير فحملوا عليهم حملة واحدة على غرة من السلطان، فإنه كان بعيدا عنهم، ولم يكن معه عساكر، وأسروا من المسلمين جماعة وقتلوا جماعة، وعدّ من كان قتل من الرجالة في ذلك اليوم فكانوا مائة وثمانين نفراً، وقتل من الفرنج أيضاً عدة عظيمة، وغرق أيضاً منهم عدة، وكان ممن قتل منهم مقدم الالمانية، وكان عندهم عظيماً.

### ذكر مسير السلطان جريدة إلى عكا:

ولما رأى السلطان ما حل بالمسلمين في تلك الوقعة البادرة جمع أصحابه وشاورهم، وقرر معهم أنه يهجم على الفرنج ويعبر الجسر ويقاتلهم ويستأصل شأفتهم، وكان الفرنج قد رحلوا عن صور ونزلوا قريب الجسر، وبين الجسر وصور مقدار فرسخ أو أزيد منه بشيء يسير، فلما صمم العزم على ذلك أصبح في يوم الخميس السابع والعشرين من جمادى الاولى على ذلك، وركب وسار وتبعه الناس المقاتلة والعساكر، ولما وصل أواخر الناس إلى اوائلهم وجدوا اليزك عائدًا، وخيامهم قد قلعت فستلوا عن ذلك فذكروا ان الافرنج رحلوا راجعين الى صور ملتجئين الى سورها، معتصمين بقربها، ولما رأى السلطان ذلك منهم، رأى أن يسير إلى عكا ليلحظ ما بني من سورها ويحث على الباقي ويعود، فراح على تبنين، ولم يرجع على مرج عيون، فمضى الى عكا ورتب أحوالها، وأمر بتتمة عمارة سورها، وأمر بالاحتياط، ثم عاد إلى

العسكر المنصور الذي بمرج عيون، وأقام منتظراً مهلة صاحب الشقيف.

## ذكر وقعة أخرى

ولما كان يوم السبت السادس من جمادى الآخرة، بلغ السلطان أن جماعة من رجالة العدو يتبسطون ويصلون إلى تبنين محتطبون، وفي قلبه مما جرى على رجالة المسلمين شيء عظيم، فرأى أن يقرر قاعدة كمين يرتبة لهم ويأخذهم فيه، ثم بلغه أن ورائهم خيلاً يحفظونهم، فعمل كميناً يصلح للقاء الجميع، ثم أنفذ إلى عسكر تبنين وتقدم إليهم أن يخرجوا في نفر يسير مغيرين على تلك الرجالة، وأن خيل العدو إذا تبعتهم ينهزمون إلى جهة عينها، وأن يكون ذلك صبيحة يوم الاثنين الثامن من جمادى الآخرة، وأرسل إلى عسكر عكا أن يسيرا حتى يكونوا وراء عسكر العدو، حتى إن تحركوا في نصرة أصحابهم قصدوا خيمهم، وركب هو وجحفله سحر يوم الاثنين شاكين في السلاح متجردين ليس معهم خيمة إلى الجهة التي عينها لهزيمة عسكر تبنين، وسار حتى قطع تبنين ورتب العسكر ثانية أطلاب، واستخرج من كل طلب عشرين فارساً من الشجعان الجياد الخيل، وأمرهم أن يتراءوا للعدو حتى يظهر ويتأشوهم وينهزمون بين أيديهم حتى يصلوا إلى الكمين، ففعلوا ذلك، وظهر لهم من الفرنج معظم عسكرهم، يقدمهم الملك، وكان قد بلغهم الخبر، فتعبوا تعبئة القتال، وجرى بينهم وبين هذه السرية اليسيرة قتال شديد، والتزمت السرية القتال، وأنفوا من الانهزام بين أيديهم، وحملتهم الحمية على مخالفة السلطان، واتصل الحرب بينهم إلى آخر النهار، ولم يرجع أحد منهم إلى المعسكر ليخبرهم بما جرى، واتصل الخبر بالسلطان في آخر الأمر، وقد هجم الليل، فبعث إليهم بعوناً كثيرة، ولما علم الفرنج بأوائل المدد عادوا منهزمين ناكسين على أعقابهم بعد أن جرت مقتله عظيمة من الجانبين، وكان القتلى من الفرنج على ما ذكره من حضر زهاء عشرة أنفس، ومن المسلمين ستة نفر: اثنان من اليزك، وأربعة من

العرب، منهم الأمير زامل، وكان شاباً حسناً مقدماً عشيرته، وكان سبب قتله أنه تقنطرت به فرسه، ففداه ابن عمه بفرسه فتقنطرت به أيضاً فرسه، وأسر هو وثلاثة من أهله، فلما بصر الفرنج بمدد العسكر قتلوهم خشية الاستنقاذ، وجرح خلق كثير من الطائفتين وخيل كثيرة، وكان للسلطان مملوك يسمى أيبك أثنى بالجراح، حتى اندس بين القتلى وجراحاته تشخب دماً، وبات ليلته أجمع على تلك الحالة إلى صبيحة يوم الثلاثاء فتفقد أصحابه فلم يجدوه معرفوا السلطان، فأنفذ من يكشف خبره، فوجده بين القتلى فحملوه إلى المخيم، وعافاه الله، وعاد السلطان إلى المخيم يوم الأربعاء عاشر الشهر المذكور، منصوراً فرحاً مسروراً، جزاه الله خيراً

وقال ابن كثير: وقتل مع زامل أمير العرب، الأمير حجي بن منصور ابن ربيعة، والأمير مطرف بن رفيع بن مري بن ربيعة، وآخر معهم.

### ذكر ركوب الأفرنج إلى عكا والنزول عليها ورحيل السلطان إلى قبالتهم:

ولما وصل الخبر إلى السلطان أن العدو قد ركب نحو عكا، وذلك يوم الأربعاء ثامن رجب - وكان قد اجتمع بصور من أهل البلاد التي أخذها السلطان بالأمان خلق عظيم حتى صاروا في عالم لا يحصون كثرة وأرسلوا إلى البحر ييكون ويستنجدون، وصورة المسيح وصورة عربي يضرب المسيح وقد أدماه، وقالوا: هذا نبي العرب يضرب المسيح، فخرجت النساء من بيوتهن، ووصل من الفرنج في البحر عالم لا يحصون كثرة، وساروا إلى عكا من صور، ونازلوها في منتصف رجب، وضايقوا عكا، وأحاطوا بسورها من البحر إلى البحر، ولم يبق للمسلمين إليها طريق، فسار إليهم السلطان ونزل قريباً من الأفرنج بمرج عكا على تل كيسان.

وقال صاحب النوادر: كتب السلطان إلى سائر أرباب الأطراف بأن يتقدموا إلى العساكر الاسلامية بالمسير إلى المخيم، وقال: سار السلطان بالليل، وأصبح صبيحة يوم الاثنين الثالث عشر من رجب سائراً إلى عكا من طريق طبرية، إذ لم يكن ثمة طريق تسع العسكر إلا هو، وسير جماعة على طريق تبين يستطلعون العدو ويواصلوه بأخبارهم.

قال: وسرنا حتى أتينا الحولة منتصف النهار، فنزل بها ساعة ثم رحل وسار طول الليل حتى أتى موضعاً يقال له منية صباح يوم الثلاثاء الرابع عشر من رجب، وفيه بلغنا أن الأفرنج نزلوا على عكا يوم الاثنين ثالث عشر رجب، وسار هو جريدة حتى اجتمع ببقية العسكر الذي كان أنفذهم على طريق تبين، بمرج صفورية، فإنه كان واعدهم إليه، ولم يزل حتى شارف العدو من الخروبة، وبعث بعض العسكر فدخل عكا على غرة من العدو تقوية لمن فيها، ولم يزل يبعث بعثاً بعد بعث حتى حصل فيه خلق كثير وعدد وافر، ورتب العسكر ميمنة وميسرة وقلباً، وسار من الخروبة، وقد كان نزل عليها يوم الاربعاء خامس عشر الشهر، فسار منها حتى أتى تلاً يقال له تل كيسان في أوائل مرج عكا، وأمر الناس أن ينزلوا على هذه التعبئة، وكان آخر الميسرة على طرف النهر الحلو، وآخر الميمنة يقارب تل العياضية، واحتاط العسكر الاسلامي المنصور بالعدو المخذول، وأخذوا عليهم الطرق من الجوانب، وتلاحقت العساكر الاسلامية واجتمعت، ورتب اليزك الدائم والجاليش في كل يوم مع العدو، وحصر العدو في خيامه من كل جانب بحيث لا يقدر أن يخرج منها واحداً إلا ويخرج أو يقتل، وكان معسكر العدو المخذول على شطر من عكا، وخيمة ملكهم على تل المصلين قريباً من باب البلد، وكان عدد رايهم ألفي فارس، وعدد راجلهم ثلاثين ألفاً، ومددهم من البحر لا ينقطع، وجرى بينهم وبين اليزك مقاتلات عظيمة متواترة والبعوث تتواصل من المسلمين والملوك والأمراء من الأقطار متتابعة، فأول من نزل ووصل الأمير الأجل الكبير تقي الدين صاحب حماه في

جحفله، وتتابعت الامراء والعساكر الاسلامية، وفي أثناء هذا الحال توفي حسام الدين سنقر الخلاطي باسهال شديد، فأسف عليه المسلمون أسفاً شديداً، فإنه كان شجاعاً ديناً، ثم إن الفرنج تكاثروا واستفحل أمرهم واستداروا بعكا بحيث منعوا من الدخول والخروج منها وذلك يوم الخميس سلخ رجب، فلما رأى السلطان ذلك ضاق صدره وثارته همته العالية لفتح الطريق الى عكا لتستمر السابلة إليها بالميرة والنجدة، فاستحضر أمرائه وأصحاب الرأي وشاورهم في مضايقة القوم، واتفقوا على أن يضايقوا بحيث ينفصل الامر بالكلية او يفتح الطريق إلى عكا.

### ذكر قيام الحرب لاجل فتح الطريق:

ولما أصبح نهار يوم الجمعة مستهل شعبان من هذه السنة أصبح السلطان على عزم القتال، فرتب عسكره ميمنة وميسرة وقلباً واتفقوا على أن تكون الملاقاة وقت الصلاة والخطباء تخطب، وهو وقت قبول الدعوات، فحملوا حملات عظيمة وهم كالسور المحيط مافيه متسلق، والمسلمون كالبنيان المرصوص مافيه خلل، وكالحلقة المفرغة ماإليها مدخل، فلم يتحرك الملاعين يوم من موضعهم، ودامت الحرب بينهم وكلما قتل واحد وقف آخر مكانه حتى دخل الليل وحجز بينهم، فأصبحوا يوم السبت على الحرب كما أمسوا، واشتدت الحرب أكثر مما كان، وأنفذ السلطان طائفة من شجعان المسلمين إلى البحر من شمالي عكا، فلم يكن هناك خيم، لكن عساكرهم ممتدة من كل ناحية، فحمل المسلمون عليهم حملة صادقة فانهزموا الى تل المصلين نحو القبة، وأخلوا ذلك الجانب، وأصبح الطريق الى عكا من باب القلعة المسماة بقلعة الملك الى باب قراقوش الذي جده، وصار الطريق مهيعاً يمر فيه السوقى ومعه الخوائج، ويمر به الرجل الواحد والمرأة واليزك بين الطريق وبين العدو، ودخل السلطان رحمه الله في ذلك اليوم عكا، ورقا على السور ونظر إلى عسكر العدو، وفرح المسلمون بنصر الله، وخرج

العسكر الذين كانوا بها الى خدمة السلطان، ثم استدار العسكر الاسلامي حول عسكر الافرنج وأحدقوا بهم من كل جانب.

### ذكر الوقعة العظمى:

ولما كان يوم الاربعاء العشرين من شعبان من هذه السنة برزت الافرنج بأجمعهم وضربوا مع السلطان مصافاً، وحلوا على القلب فأزالوه، وأخذوا يقتلون في المسلمين الى ان بلغوا خيمة السلطان، فانحاز السلطان إلى جانب وانضاف إليه جماعة، وانقطع مدد الفرنج، واشتغلوا بقتال الميمنة، فصاح السلطان: يا للاسلام، فركبت الناس بأجمعهم، وحمل السلطان على الفرنج الذين خرقوا القلب، وانعطف عليهم العسكر فأفنوهم قتلاً، وكان كل واحد من المسلمين قتل أربعين أو خمسين من الفرنج، وكان قتلى الفرنج تقدير عشرة آلاف، ووصل المنهزمون من المسلمين بعضهم الى طبرية، وبعضهم وصل الى دمشق، ولم يكن وقف من المسلمين ثابتين نحو ألف نفس، فردت مائة ألف، وجافت الارض بعد هذه الوقعة من قتلى الفرنج، فلحق السلطان مرض، وحدث له قولنج، فأشار عليه الأمراء بالانتقال من ذلك الموضع، فوافقهم ورحل عن عكا رابع عشر رمضان الى الخروبة، فلما رحل السلطان تمكن الفرنج حيثئذ من حصار عكار، وانبسطوا في تلك الارض، ولم يعلم السلطان أن ذلك كان من أكبر المصالح للعدو المخذول فإنهم اغتتموا هذه الفترة فحفروا حول خيمهم خندقاً يجمع جيشهم من البحر الى البحر محديقاً، واتخذوا من ترابه سوراً شاهقاً، وجعلوا له أبواباً يخرجون منها إذا أرادوا، وتمكن الأمر وقوي الخطب.

وقال صاحب النوادر: واصطفوا خارج خيمهم قلباً وميمنة وميسرة، وفي القلب الملك، وبين يديه الانجيل محمولاً مستوراً بثوب أطلس مغطى، يمسك أربعة أنفس أطرافه، يسرون بين يدي الملك، وامتدت

الميمنة في مقابلة الميسرة التي لعسكر الاسلام من أولها الى اخرها ، وكذا امتدت ميسرتهم في مقابلة ميمنة المسلمين الى اخرها ، وملكوا رؤوس التلال ، وكان طرف ميمتهم إلى النهر وطرف ميسرتهم إلى البحر ، والسلطان رحمه الله رتب عسكره في مقابلتهم ، فوقف هو في القلب ، وفي الميمنة ولده الملك الافضل ، ثم ولده الظاهر ، ثم عسكر المواصلة يقدمهم ظهير الدين بن البلنكري ، ثم عسكر ديار بكر في خدمة قطب الدين بن نور الدين صاحب الحصن ثم حسام الدين بن لاجين صاحب نابلس ، ثم الطواشي قاياز النجمي وجموع عظيمة متصلين بطرف الميمنة وكان في طرفها الملك المظفر تقي الدين بجحفله وعسكره ، وهو مظل على البحر ، واما أوائل الميسرة فكان مما يلي القلب سيف الدين علي المشطوب وعلي بن أحمد من كبار ملوك الأكراد ومقدميهم ، والأمير مجلي وجماعة المهرانية والهكارية ومجاهد الدين يرناقش مقدم عسكر سنجار ، وجماعة من المماليك ، ثم مظفر الدين بن زين الدين بجحفله وعسكره ، وأواخر الميسرة كبار المماليك الاسدية كسيف الدين يازكج ورسالن بغا ، وجماعة الاسدية الذين يضرب بهم المثل ، وفي مقدم القلب الفقيه عيسى وجمعه.

وهذا والسلطان يطوف على الاطلاب بنفسه ، يحثهم على القتال ويدعوهم إلى النوال ، ويرغبهم في نصره دين الله ولم يزل القوم يتقدمون والمسلمون يقدمون حتى علا النهار ومضى منه مقدار أربع ساعات ، وعند ذلك تحركت ميسرة العدو على ميمنة المسلمين ، وأخرج لهم الملك المظفر الجاليش ، وجرى بينهم قلبات كثيرة وتكاثروا على الملك المظفر ، وكان في طرف الميمنة على البحر ، فتراجع عنهم شيئاً اطاعا لهم لعلهم يبعدون عن أصحابهم فينال منهم غرضاً ، فلما رآه السلطان قد تأخر ظن به ضعفاً ، فأيده بأطلاب عدة من القلب حتى قوى جانبه ، وتراجعت ميسرة العدو ، واجتمعت على تل مشرف على البحر ، ثم جاءت منهم حملة على عسكر ديار بكر ، وكانت بهم غرة عن الحرب ،

فلم يصبروا وانكسروا كسرة عظيمة ، وسرى كسرهم إلى انكسار معظم الميمنة واتبع العدو المنهزمين إلى العياضيه ، وصعدت طائفة منهم إلى خيم السلطان فقتلوا طشت دار كان هناك ، وفي هذا اليوم استشهد اسماعيل المكبس وابن رواحة ، وأما الميسرة فإنها ثبتت ، فإن الحملة لم تصادمها ، وأما السلطان فإنه أخذ يطوف على الأطلاب ينهضهم ويحثهم على الجهاد وينادي فيهم بالاسلام ، ولم يبق معه إلا خمسة أنفس وهو يطوف على الاطلاب ويحرق الصفوف ، ثم أوى الى تحت التل الذي كان عليه الخيام وأما المنهزمون فإنهم بلغوا الى الاقحوانة فقطعوا جسر طبرية ، وقوم وصلوا إلى دمشق ، وأما المتبعون فاتبعوهم إلى العياضية ثم رجعوا عنهم ، وقتلوا في الطريق جماعة من الغلمان والخربندية والساسة المنهزمين ، ثم جاءوا على رأس السوق فقتلوا جماعة ، وقتل منهم جماعة أيضاً ، فإن السوق كان فيه خلق عظيم ولهم سلاح ، ثم لما رأوا أن الميسرة الاسلامية ثابتة علموا أن الكسرة لم تتم فعادوا منحدرين من التل يطلبون عسكرهم ، وأما السلطان فإنه كان واقفاً تحت التل ومعه نفر يسير ، وهو يجمع الناس ليعودوا إلى الحملة على العدو ، ولما رأهم نازلين من التل أرادوا لقاءهم فصرهم السلطان إلى أن ولوا ظهورهم ، فحملوا عليهم ، وعاد الملك المظفر بجمعه من الميمنة وتراجع الناس من كل جانب فنصر الله الاسلام ، وظل الناس في قتل وضرب وجرح الى ان اتصل المنهزمون الى عسكر العدو ، ثم رجع الناس عنهم السالمون بعد صلاة العصر يخوضون في القتلى وهم فرحون ومسرورون ، وعاد السلطان إلى خيمته في ذلك اليوم فرحاً مسروراً ، فافتقدوا المسلمين فكان مقدار ما فقد من الغلمان والمجهولين مائة وخمسين نفرأ ، ومن المعروفين استشهد ظهير الدين أخو الفقيه عيسى ، وكان قد وقع من فرسه وقتل عليه جماعة من أقاربه ، وقتل أيضاً الامير مجلي ، هذا الذي قتل من المسلمين ، وأما في العدو فحزر سبعة آلاف نفر .

قال الراوي: ورأيتهم قد حملوا إلى شاطيء النهر ليلقوا فيه فحزرتهم

بدون سبعة آلاف، ثم إن السلطان سارع في الكتب والرسل في رد المنهزمين من المسلمين حتى ردوا البعض من عقبة فيق، وكان الغلمان والحواشي نهبوا أموال الناس، فأمر السلطان بجمع ذلك كله، وأمر بالنداء بالوعيد والتهديد، فأحضروا شيئاً كثيراً حتى صار بين يدي السلطان مثل التل، ثم أمر بردها على أصحابها، وصار من عرف شيئاً واعطى علامته أعطاه، وكان ذلك يوم الجمعة الثالث والعشرين من شعبان، ثم تحول السلطان الى موضع يقال له الخروبة، وهو موضع قريب من مكان الوقعة، ونزل هناك يوم السبت الرابع والعشرين منه، ثم في سلخ الشهر استحضر أعيان عسكره وقال: اعلموا أن هؤلاء الكفار قد نزلوا في بلادنا، ووطئوا أرض الاسلام، ولا بد من الاهتمام بقلع هؤلاء، والله قد وجب علينا ذلك، وأنتم تعلمون أن هذه عساكرنا، وليس وراءنا نجدة نتظرها سوى الملك العادل، وهو واصل انشاء الله، وهذا العدو إن بقي وطال أمره إلى أن يفتح البحر، جاءهم مدد عظيم، والرأي كل الرأي عندي مناجزتهم، فليتكلم كل منكم ماعنده في ذلك، وكان ذلك في ثالث عشر تشرين من الشهور الشمسية، فامتحضت الآراء، ثم اتفقت على أن المصلحة تأخير العسكر إلى الخروبة لتراجع أنفسهم إليهم، فقد أخذ منهم التعب واستولى على نفوسهم الضجر، وهم خمسون يوماً تحت السلاح وفوق الخيل، والخيل قد ضجرت من عرك اللجم وسئمت نفوسها ذلك، ويصل الملك العادل ويشاركنا في الرأي، فوافقهم السلطان على ذلك لكونه قد حصل له مرض من كثرة ما حمل على قلبه، وماعانا من التعب، وحمل السلاح، فأقام هناك ينتظر أخاه الملك العادل إلى يوم الاثنين عاشر رمضان، ثم إن السلطان أرسل الى مصر يطلب أخاه العادل ويستعجل الاسطول، فوصل إليه الاسطول في خمسين قطعة مع الامير حسام الدين لؤلؤ، وكان مظفراً شجاعاً، وظفر ببطسة للفرننج فأخذها ودخل بها إلى عكا، فقويت قلوب المسلمين لذلك، وكذلك وصل الملك العادل بعسكر مصر في منتصف شوال.

وقال العماد: وكان وصول الاسطول المنصور من مصر يوم الثلاثاء عشر من ذي القعدة في المراكب المستعدة بالبأس والشدة، وكانت عدته خمسين شينياً، فأول ماظفر الاسطول المنصور بشيني للفرنج عظيم الشأن، فقتل مقاتلته، فوقعت بطشته الكبرى ببطسة كبيرة تشتمل على ميرة وذخيرة واسعة، وتفرقت سفن الفرنج أيدي سبأ في مدة هذا الحصار، ووصل إلى الافرنج في مركب ثلاثائة امرأة فرنجية مستحسنات الوجوه، اجتمعن من الجزائر، وسبلن أنفسهن لله تعالى بزعمهن، والتزمن أن لايمنعن أنفسهن ممن أراد بطانتهن من مقاتلي الفرنج، وزعمن أن هذه قرية للمسيح مافوقها قرية لاسيا إذا كان ممن اجتمعت فيه عزبة مع اقدم على القتال.

### ذكر وصول خبر ملك الالمان لعنه الله:

وفي رمضان من هذه السنة وصل من حلب كتب من ولده الملك الظاهر غازي يخبر فيها أنه قد صح أن ملك الالمان قد خرج إلى قسطنطينية في عدة عظيمة، قيل مائتا ألف، وقيل مائتان وستون ألفاً يريدون البلاد الاسلامية، وقيل إنهم في ثلاثائة ألف مقاتل، وفيهم ستون ألف فارس مدرع مقلع، وجاءت كتب أيضاً من صاحب قلعة الروم، مقدم الارمن بيدي نصيحة واشفاقاً وتخوفاً على البلاد واحتراقاً، ويقطع ان الواصلين في كثرة، وأن الناهضين إلى طريقهم في عشرة، وأبرق في كتبه وأرعد، وأبدع بخطابه وأبعد، ولاشك إلى دينه النجس مائل، وبملاءة أهل ملته قائل، ولما وصل هذا الخبر كاد الناس يضطربون على أنهم يصدقون ويكذبون، واشتد ذلك على السلطان، وعظم عليه، ورأى استنفار الناس للجهاد واعلام الخليفة بذلك.

قال قاضي القضاة بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم صاحب النوادر: استندبني السلطان لذلك وأمرني بالمسير إلى صاحب

سنجار، وصاحب الجزيرة، وصاحب الموصل، وصاحب إربل، واستدعاهم إلى الجهاد بأنفسهم وعساكرهم ، وأمرني بالمسير إلى بغداد لاعلام الخليفة الناصر لدين الله.

قال: وكان مسيري في الحادي عشر من رمضان من هذه السنة ويسر الله الوصول إلى الجماعة المذكورين فأجابوا، وسار عماد الدين زنكي صاحب سنجار بعسكره وجمعه في تلك السنة، وسار ابن أخيه سنجر شاه صاحب الجزيرة بنفسه يجر عسكره، وسير صاحب الموصل عز الدين ابنه علاء الدين خرم شاه بمعظم عسكره، وسار صاحب إربل بنفسه وعسكره.

قال: وحضرت الديوان السعيد ببغداد، وأعلمت الخليفة بذلك، ووعد بكل جميل، ثم عدت إلى خدمة السلطان وكان وصولي إليه يوم الخميس خامس ربيع الأول من سنة ست وثمانين وخمسة، وكانت العساكر قد تجهزت فسبقتهم وعرفته باجابتهم بالسمع والطاعة، وتأهبهم للمسير، فسرّ بذلك وفرح فرحاً شديداً، وانسلخت هذه السنة والحال على ما هو عليه، ولا ملجأ من الله إلا إليه.

### ذكر بقية الحوادث:

منها أنه في محرم أمر الخليفة أن يعهد الى ولده أبي نصر، وأن أمير المؤمنين أنعم النظر للمسلمين بتفويض عهده والإمامة من بعده إلى ولده عدة الدنيا والدين أبي نصر محمد، لما علم من عقله الراجح وهديه الواضح، وبعث الخليفة مع ضياء الدين عبد الوهاب بن علي الصوفي، ويعرف بابن سكينته، نسخاً إلى صلاح الدين في الخطبة، وبعث إلى جميع الآفاق، فالتقاء السلطان وخطب له على المنابر، وكان الخطيب بدمشق عبد الملك بن زيد الدولعي، وبعث السلطان جواب الرسالة مع ضياء

الدين بن الشهرزوري، وبعث معه بصليب كان على صخرة بيت المقدس، فجعل على باب النوبي تطأه الاقدام ويهان، وهو بحاله إلى هلم جرا.

وقال ابن كثير: وفي صفر قدم من جهة الخليفة رسل يعلمون صلاح الدين بولاية العهد إلى عدة الدين الملقب بالظاهر ابن الامام الناصر لدين الله، فأمر السلطان لخطيب دمشق أن يخطب له بعد الخليفة، فخطب يوم الجمعة ثالث صفر، ونثر عليه الدنانير والدراهم، ثم جهز السلطان مع الرسل تحفاً عظيمة وهدايا سنية، وأرسل بأسارى من الفرنج على هيئتهم في حال حربهم، وأرسل بصليب الصليب ودفن تحت عتبة باب النوبي من دار الخلافة فكان يداس بعدما كان يقبل ويياس، وصار ييصق عليه بعدما كان يسجد عليه، وكان هذا الصليب من نحاس مطلياً بالذهب.

ومنها أن السلطان صلاح الدين ولى دمشق بدر الدين مودود أخا العادل لأمه شحنة دمشق.

ومنها أنه في جمادى الاولى ولد للملك العزيز ولد سماه محمداً، ولقبه ناصر الدين، وهو الذي اجتمع عليه أصحاب العزيز عند موته سنة خمس وتسعين وخمسةائة.

### ذكر من توفي فيها من الأعيان:

الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري، من أصحاب أسد الدين شيركوه، دخل معه إلى مصر وحظي عنده، ثم كان ملازماً للسلطان صلاح الدين يوسف حتى توفي في ركابه، وكان ممن تفقه على الشيخ أبي القاسم البزري الجزري، وكان الفقيه عيسى من الفضلاء والامراء الكبراء.

وقال العماد: توفي الفقيه عيسى بمنزلة الخروبة سحرة يوم الثلاثاء تاسع ذي القعدة لسنة خمس وثمانين وخمسمائة، وحمل من يومه إلى القدس فدفن به، وكان من الأعيان، ومن مقربي السلطان.

وفي المرأة: وكان لقبه ضياء الدين، وحضر فتوح القدس والفرات، وكان صلاح الدين يحبه ويحسن الظن به ويستشيره، وكان الله قد أقامه لقضاء حوائج الناس، ويفرج عن المكرويين مع الورع والفقه...

الأمير موسك بن جلودا والد الأمير عماد الدين داود بن موسك، ابن خال السلطان صلاح الدين، حفظ القرآن وسمع الحديث وكان محسناً إلى الناس يقضي حوائجهم ويتلطف بهم، وكان ملازماً للسلطان في غزواته لم يتخلف عنه في مشهد منها، وكان ديناً صالحاً جواداً مرض بمرج عكا مرضاً شديداً، فأمره السلطان أن يمضي إلى دمشق يتطبب، فجاء إلى دمشق فتوفي بها ودفن بقاسيون رحمه الله، وكانت وفاته في شعبان من هذه السنة.

الأمير حسام الدين طهان - صاحب الرقة - كان شجاعاً جواداً محسناً محباً للخير، كثير الصدقات مائلاً إلى العلماء والفقهاء، بنى مدرسة بحلب لأصحاب أبي حنيفة رضي الله عنه، وكان السلطان صلاح الدين يحبه، ويعتمد عليه، ولما احتضر والسلطان في مقابلة الافرنج، طلب حصانه وزرديته ليركب ويشهد من حرصه على الغزاة، فلم يقدر لضعفه، فجعل يبكي ويتأسف على موته على فراشه، وكان من شجعان المسلمين، توفي في ليلة النصف من شعبان، ودفن في تل العياضية، وحزن السلطان والمسلمون عليه.

الأمير سنقر الخلاطي: توفي في ليلة الاثنين السابع والعشرين من رجب من هذه السنة، وذلك أيضاً حين كان السلطان على عكا رحمه الله.

## فصل فيما وقع من الحوادث في السنة السادسة والثمانين بعد الخمسةائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله، والسلطان صلاح الدين مقيم بعسكره بمنزلة الخروبة، وكل من الملك العادل والملك الأفضل والملك المظفر في خيمته المضروبة، وعكا محصورة، وجموع الفرنج على حصارها محشورة، وهلك من الفرنج المحاصرين في الوقائع خلق كثير لان القتال لم ينقطع والتوقع لم يرتفع.

### ذكر وقعة الرمل:

كان السلطان صلاح الدين رحمه الله يركب أحياناً للصيد، ولكن لا يبعد من المخيم، وركب يوماً في صفر على عادته، فتصيد وطاب له الصيد فأبعد، واليزك على الرمل وساحل البحر من الميسرة على حذرهم واحتياطهم فإذا الفرنج خرجوا في عدد لا يحصى وقت العصر فتسامع المسلمون، فزحفوا إليهم، وحملوا عليهم وطردهم إلى خيامهم من خلفهم وأمامهم، ولم يزل بينهم حملة وردة ورمية حتى فني الشباب، فلما علم الفرنج بذلك حملوا حملة واحدة ردوا بها المسلمين إلى النهر، فثبت من العادلة في وجوه القوم صف مرصوص البنيان، فوقع بينهم قتال عظيم واستشهد جماعة من الشجعان وذلك لانهم ردوا الفرنج إليهم فلقوا فرساناً وصرعوا شجعاناً، ونزلوا واشتغلوا بالغنيمة، فحملت الفرنج عليهم حملة منكرة، فأشغلتهم عن الوثوب والانتهاض، وأظلم الليل، وافترق الفريقان عن قتلى، وكان ممن استشهد من المسلمين الحاجب ايدغمش المجدي رحمه الله ومملوك للسلطان كان يدعى أرغش، وكان خيراً صالحاً، ومن عجائب هذه الواقعة أن مملوكاً للسلطان يسمى قرا سنقر كان من الأبطال المشهورين عشر به جواده فصار راجلاً، فقبض

عليه من أسره وسجبه من شعره، وجاء آخر وسل سيفه عليه ليضربه،  
فضرب يد قابض شعره فسيبه، واشتد يعدو وهم يعدون وراءه ليقتلوه،  
وفاتهم بعون الله تعالى.

## ذكر فتح شقيف أرنون:

وفي يوم الأحد خامس عشر ربيع الأول تسلم صلاح الدين بالامان  
شقيف أرنون، وكان الحصار مستمراً عليه من السنة الماضية، وكان  
السلطان حبس صاحبها أرناط في دمشق على ما فصلناه، فلما تسلم  
السلطان شقيف أرنون أفرج عن أرناط، وصار الى صور، وكان هذا من  
أدهى الفرنج وأخبرهم بأيام الناس، كما قرأ في كتب الحديث وتفسير  
القرآن، ومع هذا كان غليظ الجلد كما في القلب قبحه الله.

وفي النوادر: لما كان التاريخ المذكور علم الفرنج المستحفظون  
بالشقيف أنه لاعاصم لهم من أمر الله، وأنهم أخذوا عنوه، فطلبوا  
الامان، وكانوا علموا من حال صاحبهم أنه قد عذب أشد العذاب،  
فاستقرت القاعدة على أن يطلق صاحبهم وجميع من فيه من الفرنج،  
ويترك ما فيه من أنواع المال والذخائر، فأمنهم السلطان على ذلك  
وسلموا الشقيف، وعاد صاحبهم والفرنج الذين كانوا به إلى صور.

## ذكر حال عكا وكيفية الوصول إليها:

كان السلطان قد قوى عكا بتسيير الغلات والاقوات إليها، وملاها،  
بالذخائر والاسلحة، ثم لما انقضى الشتاء وانفتح البحر، وحان زمان  
القتال كتب السلطان إلى العساكر يستدعيهم من الاطراف، ولما تواصل  
أوائل العساكر، وقوي جيش الاسلام رحل السلطان رحمه الله نحو العدو  
فنزول بتل كيسان، وذلك في الثامن عشر من ربيع الأول من هذه السنة،

ورتب عساكره، وكان خبر البلد قد انقطع عن السلطان، وامتنع عليه دخول البلد والمدد، فعند ذلك اشتد العوامون بالسباحة، وكانوا يحملون نفقات الاجناد على أوساطهم ويخاطرون بأنفسهم، ويحملون كتباً وطيوراً ويعودون بكتب وطيور، وكان أهل عكا يكتبون إلى السلطان، ويكتب السلطان إليهم على أجنحة الحمام ويعرف الاحوال بذلك.

وقال ابن كثير: فلما انحسر الشتاء وانكسر البرد، وانتشر الربيع أمر السلطان باجتماع العساكر وكانوا قد تفرقوا فتوافوا، فكان أول من وصل الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه صاحب حمص والرجبة، وسابق الدين عثمان صاحب شيزر، وعز الدين ابراهيم، ووفد معهم جموع من الاجناد والاعيان وحشود من العرب والتركمان، ثم رحل السلطان ونزل على كيسان في التاريخ المذكور، وترتبوا في النزول يمينة وميسرة وقلبا، وكان الملك الافضل في أول اليمينة وأخوه الملك الظاهر في أول الميسرة.

ذكر وصول رسول الخليفة: لما كان يوم الاثنين السادس عشر من ربيع الأول من هذه السنة وصل رسول من بغداد من عند الخليفة الناصر، وهو الشريف فخر الدين نقيب مشهد باب التبن ببغداد، وذلك في جواب رسالته مع ضياء الدين الشهرزوري، وأرسل الخليفة معه أحمالا من النفط والرماح الخطية، ومعه نفاطة متقنون لهذه الصناعة غاية الاتقان، ومرسوم بعشرين ألف دينار، وذلك في رقعة من الديوان العزيز تتضمن الأذن للسلطان في أن يقترض عشرين ألف دينار ينفقها في الجهاد ويحيل بها على الديوان العزيز، فقبل السلطان جميع ماوصل واستعفى عن الرقعة.

وفي المرآة: ومع الرسول توقيع بعشرين ألف دينار تقترض من التجار على الخليفة، فشق على السلطان، وقال: أنا في يوم واحد أخرج مثل هذا

وأضعافه، وما أنا مضور ، ورد عليه جميع ما جاء به، فأشار عليه بعض أصحابه بأخذ النفط للغزاة فأخذه، ورد التوقيع، وقال: يرحم الله العاضد وصل إليّ منه في عشرين يوماً بمقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار ومعها عروض.

### ذكر وصول الأمراء:

وفي يوم الثلاثاء الثاني عشر من ربيع الآخر قدم عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي، صاحب سنجار بمن استنهضه من العساكر، في جمع عظيم، ولقيه السلطان وأكرمه غاية الأكرام، ورتب له العسكر في لقاءه، فكان أول من لقيه من العسكر المنصور قضاته وكتابه، ثم لقيه أولاده بعد ذلك، ثم لقيه السلطان، ثم سار حتى أوقفه على العدو، ثم عاد معه إلى خيمته وأنزله عنده، وكان صنع له سباطاً لائقاً به، فحضر هو وجميع أصحابه، وكان قد بالغ في إكرامه حتى بسط له طراحة مستقلة إلى جانبه، وبسط له ثوباً أطلس عند دخوله، ثم ضربت له خيمة على طرف المسرة عند جانب النهر، وقدم إليه عشرة من الخيول العربية، وخمس عشرة بقجة قماش.

ثم وصل من بعده ابن أخيه معز الدين سنجرشاه بن غازي بن مودود، صاحب الجزيرة، بعساكره الكثيرة، وذلك يوم الأربعاء سابع جمادى الآخرة، ولقيه السلطان وأكرمه وأنزله في خيمة ضربت إلى جانب عمه عماد الدين، ثم وصل الملك السعيد علاء الدين خسروشاه ابن صاحب الموصل عز الدين مسعود بن مودود، وذلك يوم الجمعة تاسع جمادى الأولى، وكان أبوه أرسله نائباً عنه مقدماً على عسكره، ففرح السلطان بقدومه وتلقاه من بعد وأنزله عنده في خيمة ضربت له بين خيام ولديه الملك الأفضل والملك الظاهر، وقدم له تحفاً سنوية، وكان ابنه الملك الظاهر غازي صاحب حلب والملك مظفر الدين بن علي كوجك،

صاحب حران، قدما قبل احتراق الابراج التي صنعها الافرنج.

وقضيتها أن البحر لما انفتح تواترت الافرنج والنصارى من كل جزيرة ينصرون أصحابهم ويمدونهم بالقوة والميرة، وعملت الافرنج ثلاثة أبرجة خشب وحديد عليها جلود مسقاة بالخل والخمر لئلا يعمل فيها النفط والنار، وطموا خندق عكا، وسحبوا الابراج على العجل إلى السور، فأقبلت أمثال الجبال، فأشرفت على البلد، وفي كل برج خمسمائة مقاتل، فأيس المسلمون من البلد، وقد حيل بينهم وبين السلطان، وركب السلطان والعساكر واجتهدوا في الوصول إلى البلد، فلم يقدرروا ورماهم الزراقون الذين في البلد بالنفط، فلم يحترق منها شيء، فأهم أمرها المسلمين وكانوا عليها خائفين، فأعمل السلطان حيله وفكره في احراقها واهلاكها، فاستحضر النفاطين ووعدهم الاموال الجزيلة، فانتدب شاب نحاس من دمشق يعرف بعلي، عريف النحاسين، والتزم باحراقها واهلاكها، فأخذ النفط الابيض، وخلط إليه أدوية عرفها، وغلاه في ثلاث قدور من النحاس حتى صار ناراً تتأجج، ورمى كل برج منها بقدر من تلك القدور بالمنجنيق من داخل عكا، فأحرق الابراج الثلاثة باذن الله تعالى، حتى صارت ناراً لها ألسنة في الجو متصاعدة، فصرخ المسلمون صرخة واحدة بالتهليل والتكبير واحترق في كل برج من مقاتلتهم سبعين كفوراً، ﴿وكان يوماً على الكافرين عسيراً﴾ [الفرقان ٢٦] وذلك يوم الاثنين الثامن والعشرين من ربيع الأول من هذه السنة، وكانت الفرنج قد تعبوا فيها سبعة أشهر فاحترقت في يوم واحد.

وفي المرآة: وكان هذا الشاب بعكا ليس له في الديوان اسم، وكان عارفاً بالنفط والحريق، وقال لقراقوش: انصب إليّ منجنيقاً أحرق هذه الأبراج، فقال له: قد عجز الصناع فمن أنت؟ فقال: قد عملت قدوراً لله تعالى، وأنا لأريد منكم شيئاً، وما يضركم أن أرمي بها في سبيل الله فإن نفعت، وإلا فاحسبني واحداً منهم، فقال قراقوش: ما يضرنا ذلك،

ثم نصب له المنجنيق، وكان قد هياً تلك القدور، فرمى قدرة واحدة في برج فاحترق بمن فيه، ثم فعل ذلك بالثاني والثالث، فكبر المسلمون، وسمع السلطان فكبر والعساكر وفرح قراقوش والأمراء وطموه بالخلع والاموال، فلم يأخذ شيئاً، وقال: أنا فعلت هذا لله تعالى ولم يأخذ عليه شيئاً من الدنيا، وكان السلطان أيضاً قد عرض عليه العطية السنينة فامتنع من قبولها، وقال: إنما عملت هذا ابتغاء وجه الله فلا أريد منكم جزاء ولا شكوراً.

### ذكر وصول الاسطول من مصر:

وكان السلطان قد أمر بتعمير اسطول آخر من مصر، تصل فيه الميرة والذخير والعدد الكثيرة، فلما كان ظهر يوم الخميس ثامن جمادى الاولى ظهر الاسطول فركب السلطان في جحافلته ليشغل الفرنج عن قتال الاسطول، وعمر الفرنج أيضاً اسطولاً وصفوا شوانيه على البحر عرضاً وطولاً، وأرادوا أن يلاقوا الاسطول المنصور، فجاءت مراكب الموحدين ونطحت مراكبهم وطحنتها، وأخذ المسلمون لهم مركباً، وأخذ الافرنج للمسلمين مركباً وكان التقصير من الرؤساء، واتصل الحرب في البر إلى حين غروب الشمس، وعاد المسلمون مسرورين، وقتل من الافرنج عدد كبير لعنهم الله.

وقال القاضي بهاء الدين رحمه الله: التقى الاسطولان في البحر والعسكران في البر، واضطربت نار الحرب، وباع كل فريق روحه براحته الاخروية، ورجح حياته الابدية على حياته الدنياوية، وجرى بين الاسطولين قتال شديد أفصح عن نصره الاسطول الاسلامي، وأخذ منه شيني وقتل من فيه، ونهب جميع مافيه وظفر العدو أيضاً بمركب كان واصلاً من قسطنطينة، ورحل الاسطول المصري إلى عكا، واتصل القتال بين العسكرين من خارج البلد إلى أن حجز بينهما الليل، وقد قتلوا من

الافرنج خلقاً كثيراً، إلا أنهم قاتلوا في ثلاثة مواضع في البحر والبر، ومن داخل عكا.

### ذكر قصة ملك الالمان:

صح الخبر أن ملك الالمان عبر من قسطنطينية الخليج، وأنه وصل بجمعه إلى مضائق صعب عليه العبور، فقبل إنهم أقاموا في قفار ومواضع صعبة شهراً عدماً فيها الطعام ولم يجدوا بها إلا ضراً، وكان التركمان الأوجية على طريقهم يمنعون شريعتهم، فاضطروا إلى المقام بغير زاد، فصاروا يذبحون خيولهم ويأكلونها ويكسرون قنطارياتهم لفقدان الحطب ويشعلونها، فترجلت منهم ألوف، وكان ذلك في البرد الشديد وزمان الثلج والجليد، وعدموا الدواب لحمل الاثقال، ونقلوا عدد الرجال فدفنوا من ذلك شيئاً كثيراً، وأحرقوا منها، وكان ظنهم أنهم إذا عادوا أخذوا مادفنه، فأخذ المسلمون مادفنه، وكانوا في عدد كثير، فما أثر فيهم ذلك ولا كسرهم عن مقصدهم وما زالوا يسرون حتى بلغوا إلى بلاد صاحب الروم قونية وغيرها وهو قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن (سليمان بن) قتلش بن سلجوق.

وفي المرآة: وكانوا في ستمائة ألف مقاتل جاءوا من فرنجة، فخاف منهم ملك القسطنطينية فقالوا له: لانتخف نحن ماجئنا إلا لنخلص القدس وصليب الصليبوت، ونملك بلاد المسلمين، وكان بين السلطان صلاح الدين وبين ملك قسطنطينية مراسلة ومكاتبة، وكان وصل منه رسول إلى السلطان بمرج عيون في رجب سنة خمس وثمانين وخمسة مائة وجواب رسول كان أنفذه السلطان إليه بعد تقرير القواعد، وإقامة قانون الخطبة في جامع في قسطنطينية، وكانت الخطبة أقيمت وأكرم الرسول اكراماً زائداً، وكان السلطان قد أنفذ مع الرسول خطيباً ومنبراً وجمعاً من المؤذنين والقراء، وكان يوم دخولهم القسطنطينية يوماً عظيماً، ولما رقا

الخطيب المنبر حضر هناك جمع كثير من التجار والمسلمين مقيمين بها، وأقام الخطيب الدعوة العباسية وبعد ذلك كله جاء رسول صاحب القسطنطينية الذي ذكرناه ومعه ترجمان يترجم، وهو شيخ حسن الوجه وعليه زيهم الذي يختص بهم، ومعه كتاب مختوم بالذهب دون عرض كتاب بغداد مترجم في ظاهره وباطنه بسطرين بينهما فرجه وضع فيها الختم من الذهب المطبوع كما يطبع الخاتم في الشمع، وعلى الختم صورة الملك وصورة السطرين المذكورين:

«من ايتاكيوس الملك المؤمن بالمسيح الاله المتوج من الله، المنصور العالي أبداً، فقتوس المدبر من الله، القاهر الذي لا يغلب، ضابط الروم بذاته انكليوس».

إلى النسب سلطان مصر صلاح الدين».

وأما الذي في باطن الكتاب فإنه يتضمن اظهار المحبة والمودة، ثم ذكر خبر ملك الامان، وقال: «لا تحمل على قلبك منهم، فإن إديبارهم على قدر نيتهم وآرائهم، وإنهم قد خسروا كثيراً من الاموال والدواب والرجال وبلغوا بالشدة، وقد تخلصوا من أجناد بلادي بالغضب، وقد ضعفوا بحيث أنهم لا يصلون الى بلادك، وإن وصلوا كانوا ضعافاً في شدة بعد شدة».

وأكرم السلطان رسوله وأقام بحقه كما هو العادة بين الملوك.

ووصل أيضاً كتاب إلى السلطان من مقدم الارمن، وهو صاحب قلعة الروم التي على أطراف الفرات، وصورته: «كتاب الداعي المخلص الكاغيوس: مما أطلع به علوم مولانا ومالكنا السلطان الناصر جامع كلمة الايمان، رافع علم العدل والاحسان صلاح الدنيا والدين، سلطان

الاسلام والمسلمين أدام الله إقباله وضاعف جلاله وصان مهجته وكماله، وبلغه نهاية أماله بعظمته وجلاله.

وأما أمر ملك الالمان فإنه دخل بلاد الهنكر غصبا، وأذعن له ملك الهنكر ودخل تحت طاعته، وأخذ من ماله ورجاله ما اختار، ثم إنه دخل أرض مقدم الروم وفتح البلاد ونهبها وأقام بها وأخلاها، وأحوج ملك الروم إلى أن أطاعه وأخذ رهائنه: ولده وأخاه وأربعين نفراً من خالصائه، وأخذ منه خمسين قنطاراً ذهباً، وخمسين قنطاراً فضة، وثياباً طلساً، مبلغاً عظيماً، واغتصب المراكب وعاد بها إلى هذا الجانب، وصحبتة الرهائن إلى أن دخل حدود بلاد الملك قليج أرسلان، ورد الرهائن، وبقي سائراً ثلاثة أيام وتركمان الاوج يلقونه بالاغنام والابقار والخيل والبضائع فداخلهم الطمع وجمعوا من جميع البلاد، ووقع بينهم وبين التركمان، وضايقهم التركمان ثلاثة وثلاثين يوماً، ثم ذكر ما وقع بينه وبين قليج أرسلان على ما ذكره إنشاء الله تعالى.

### ذكر ماجرى بينهم وبين قليج أرسلان:

ولما وصلوا إلى بلاد قليج أرسلان، وكان مملوكاً من ولده قطب الدين ملكشاه، وهو يدبر أمره، عارضهم وتعرض لقتالهم وطاردهم ليضيق عليهم، ثم اندفع من بين أيديهم، ودخلوا قونية، واعتصم قليج أرسلان بقلعتها وتراسل هو وملك الالمان واتفقا بالمواثيق والايان على ان يوافقه على العبور إلى الاقاليم الشامية والبلاد الاسلامية، وعلى أن يسير في بلاده إلى بلاد لافون ملك الأرمن، وأعطاه عشرين مقدماً من أكابر أمرائه ليكونوا معه حتى يصل إلى الماء، وأمر الناس بمبايعتهم على ما يسومونه، وأقام لهم الاسواق، فساروا في رفق ورفاهية، ولما وصل الملعون الى بلاد الارمن غدر بالرهائن وساقهم محمولين مع الطعائن، واحتج عليهم بأن التركمان سرقوا منهم في طريقه.

وفي تاريخ بيبرس: ولما قربوا من قونية خرج إليهم قطب الدين ملكشاه بن قليج أرسلان ليمنعهم، فلم يمكنه ذلك لكثرتهم، فراسله ملك الالمان، وأرسل إليه هدية وهادنه، وطلب منه من يسير معه إلى بيت المقدس، ثم سار إلى بلاد الارمن.

وفي المرآة: ولما دخلوا بلاد قليج أرسلان لم يكن له بهم طاقة، فاحتاج إلى مسالمتهم، وكتب إلى السلطان يعتذر بالعجز عنهم، وساروا طالبين الشام، ووقع فيهم الوباء وبدوا بهم.

وذكر في النوادر: ولما قربوا من قونية، جمع قطب الدين بن قليج أرسلان العساكر، وقصده وضرب معه مصافاً عظيماً فظفر به الملك، وكسره كسرة عظيمة، وسار حتى أشرف على قونية، فخرجت إليه جموع كثيرة من المسلمين فردهم مكسورين، وهجم قونية بالسيف، وقتل منهم عالماً عظيماً من المسلمين، وأقام بها خمسة أيام، فطلب منه قليج أرسلان الامان، فأمنه، واستمرت بينهم قاعدة أكيدة، وأخذ منه رهائن عشرين من أكابر دولته، وأشار على الملك أن يجعل طريقه على طرسوس والمصيصة، ففعل ذلك وقبل منه.

وفي المرآة: ووصلوا إلى نهر طرسوس فتحصن منه ابن ليفون بقلعة من قلاعه لانه أرمني وهم روم.

قلت: التوفيق بين الكلامين أنه تحصن أولاً منه خوفاً، ثم طلب منه الامان فأمنه، ونزل إلى خدمته، وأقام بواجبه.

### ذكر هلاك ملك الالمان:

لما وصل ملك الالمان الى طرسوس، اجتاز هناك بنهر شديد الجرية، فدعته نفسه الخبيثة ان يسبح فيه، فنزل وصار فيه، فحمله الماء إلى جذم

شجرة هناك ففشخت رأسه، وأخذت أنفاسه، وراحت روحه إلى الهاوية، وأراح الله المسلمين منه، وكان شيخاً مسناً.

وفي تاريخ بيبرس: ثم سار إلى أنطاكية، وكان في طريقهم نهر، فنزلوا عنده، فعب الملك النهر ليغتسل فمرض فمات، وكفى الله شره.

وفي المرأة: أراد الملك أن يسبح في نهر طرسوس، وكان ماؤه بارداً، فنهوه، وقالوا: لا تفعل فأنت متعوب، فقال: لا بد من ذلك فسبح فيه، فأخذته الحمى، فأقاموا على النهر بسببه، فأوصى إلى ولده الذي كان في صحبته ومات فسلقوه في خل وحملوا عظامه ليدفنوها في القدس.

وذكر صاحب النوادر: نزل على شط بعض الانهار، فأكل خبزاً ونام ساعة، وانتبه فتاقت نفسه الى الاستحمام في الماء البارد، ففعل ذلك، وخرج، وكان من أمر الله أنه تحرك عليه مرض عظيم من الماء البارد، فمكث أياماً قلائل ومات.

ولما شاهد لافون ملك الارمن هذا هرب وتحصن في بعض حصونه، واحتمى هناك.

### ذكر إقامة ابن الملك مقامة:

ولما هلك اللعين المذكور أقيم ولده الاصغر في الملك بعده، وقد تمزق شملهم، وتفرق جمعهم.

وفي المرأة: ولما مات اختلفوا على ولده لانه كان له آخر أكبر منه، وكانوا يميلون إليه، فتأخر عنه أكثرهم، ودخل أنطاكية في جيش قليل.

وفي تاريخ بيبرس: وكان معه ولده فصيروه ملكاً عليهم، فاختلفوا

عليه، ومال بعضهم إلى أخيه، فسار فيمن بقي معه، وعرض جماعته، فكانوا نيفاً وأربعين ألفاً، ووقع فيهم الوباء، وتخطفهم عسكر حلب وغيرهم، ثم ساروا إلى طرابلس، فلم يبق منهم سوى ألف، ثم ركبوا البحر وقصدوا عكا، ثم أجمعوا على العود إلى بلادهم في البحر، ففرق بهم المركب، ولم ينج منهم أحد، وأرسل قليج أرسلان صاحب الروم يعلم السلطان صلاح الدين بذلك، وبلغ الفرنج هلاكه فأشعلوا النيران حزناً عليه.

وفي تاريخ ابن كثير: وأما ولد ملك الالمان فإنه مرض أياماً في بلد الارمن، وهلك أصحابه جوعاً، ووقع الموت في خيلهم، وحمل الملك وهو مريض، وساروا أمامه في ثلاث نوب لكثرتهم، ومعظم رجالتهم حاملين العصي وركاب حمير، وهم غير عارفين بالطريق، والناس يلتقطونهم ويتخطفونهم، ووصلوا إلى أنطاكية وضاق بالابرنس صاحب أنطاكية ذرعاً، ولم يجد عنده مرتجى، وطلب منه القلعة فأخلاها له، ونقل ماله إليها وسأله أن يجعل طريقه على حلب، فخاف وأبدى الخلاف، وقبل وصوله إلى انطاكية قلت جموعه وجنوده، وبليت بحشد التركمان حشوده، واجتازت الفرقة الاولى منهم على بغراس من تحت قلعتها، فخرج رجالها عليهم على قلتهم، فأسروا منهم أكثر من مائتي أسير، وقيل إنهم حسبوا أن بغراس باقية على حالها بيد الداوية، فجاءوا إليهم سحراً بأحلامهم وأمواهم السنيه، فلم يشعر واليها إلا البغال على الباب واقفة، فخرج إليها وتسلمها بغير طعن ولا ضرب، وتخلى عنها أصحابها لما عرفوا الحال، ولم يعرجوا على حرب، وهلك بانطاكية الكند الكبير مقدم العسكر، وحصل للابرنس صاحب انطاكية أموال كثيرة من الذخائر المودعة وغيرها، ثم سار هؤلاء الملاعين على طريق الساحل، فخرجت عليهم خيل اللاذقية وجبله وسقتهم أنواع العذاب، فجدوا السير حتى وصلوا إلى طرابلس وقد نقص نصفهم، وخاف الملك من المسير على الطريق لما افرقت جموعه، فركب البحر في عدد يسير لا يزيد على ألف، واختلط مع

الافرنج على عكا، فسقط اسمه وبطل حكمه، وكذلك شأن من يكفر بالله.

وقال ابن كثير: وصل ملك الالمان في خمسمائة ألف مقاتل، وإن ملوك الافرنج كلهم كرهوا قدومه عليهم لما يخافون من سطوته، وزوال دولتهم بدولته ولم يفرح به إلا المريكس صاحب صور، الذي حرك هذه الفتنة وأثار هذه المحنة لعنه الله، فانه تقوى به وبكيدته، وكان خبيراً بالحروب والقتال، وقد أحدث أشياء كثيرة، من آلات الحرب لم تخطر ببال أحد، منها أنه نصب دبابات أمثال الجبال تسير بعجل ولها زلوم من حديد ينطح السور فيكسر ويثلم جوانبه، فمن الله العليم باحراقها واتلافها، وأراح الله المسلمين مز شرها (٢٤)

### ذكر مسير العساكر إلى أطراف البلاد التي في طريق ملك الالمان:

لما تحقق السلطان صلاح الدين رحمه الله وصول ملك الالمان الى بلاد لافون، ملك الارمن، وقربه من البلاد الاسلامية جمع أمراء دولته وأرباب الآراء وشاورهم فيما يصنع، فاتفق الرأي على أن بعض العسكر يسير إلى البلاد المتاخمة لطريق عسكر العدو الواصل، وأن يقيم هو رحمه الله على منازلة العدو بباقي العسكر المنصور، فكان أول من سار صاحب منبج، وهو ناصر الدين بن تقي الدين، ثم عز الدين بن المقدم صاحب كفرطاب وبعريين وغيرهما، ثم مجد الدين صاحب بعلبك، ثم سابق الدين صاحب شيزر، ثم الياروقية من جملة عسكر حلب، ثم عسكر حماه، وسار ولده الملك الافضل إلى دمشق لمرض عرض له، ثم بدر الدين شحنة دمشق لمرض عرض له أيضاً، وسار بعد ذلك ولده الملك الظاهر إلى حلب لحفظ الطرق وكشف الاخبار، وسار بعد ذلك الملك المظفر لحفظ ما يليه من البلاد، وكان آخر من سافر ليلة السبت التاسع

عشر من جمادى الآخرة من سنة ست وثمانين وخمسمائة، ولما سارت هذه العساكر خفت ميمنة السلطان، فإن معظم من سار كانوا منها، فأمر السلطان أخاه الملك العادل أن ينتقل إلى منزلة تقي الدين في طرف الميمنة، وكان عماد الدين زنكي في طرف الميمنة، ووقع في العسكر مرض عظيم، فمرض مظفر الدين بن زين الدين صاحب حران وشففي، ومرض بعده الملك الظاهر ولد السلطان وشففي، ومرض خلق كثير من الاكابر وغيرهم، إلا أن المرض كان سليماً بحمد الله، وكان المرض عند العدو أكثر وأعظم، مع كونه مقروناً بموتان عظيم، وأقام السلطان رحمه الله مصابراً على ذلك، مرابطاً للعدو.

وفي تاريخ ابن كثير: عزم السلطان على استقبالهم بالرد، وصددهم عن القصد، ثم ثبت عزمه على أن يعود الذين لهم بلاد على طريق هؤلاء الملاعين، فأول من سار ناصر الدين محمد ولد الملك المظفر صاحب منبج، ثم فلان وفلان على ما ذكرنا الآن، ثم رحل الملك المظفر تقي الدين لحفظ ثغر اللاذقية وجبلة، وكان هو آخر من سار ليلة السبت التاسع من جمادى الآخرة، ورتب السلطان منازل العسكر الحاضره على ما ذكرنا وتقدم، وهدم سور طبرية، وهدم يافا وأرسوف وقيسارية، وهدم سور صيدا وجبيل، ونقل أهلها إلى بيروت.

وفي المرأة: وانقطعت أخبار عكا عن السلطان، فندب أقواما للسياحة وأعطاهم المال في أوساطهم والطيور في أعناقهم ليرووا الاخبار، فعلم بذلك الافرنج فاحترزوا بشباك نصبوها في الميناء، فإذا جاء سابع وقع فيها، فامتنع الناس، وبعث قراقوش يشكو قله الميرة، فرتب لهم السلطان بطسة كبيرة، وجعل فيها نصارى من أهل بيروت كانوا قد أسلموا، فقال لهم: ارفعوا الصليبان على البطسة كأنكم قاصدين الفرنج، ففعلوا ذلك، فخرج إليهم الافرنج في الشواني، فقالوا: نراكم قاصدين البلد؟ فقالوا: أو ما أخذتموه بعد؟ قالوا: لا، فقالوا وراءنا بطسة أخرى ردها عن

البلد، فذهبوا عنهم فردوا القلاع إلى البلد، ودخلوا إلى الميناء، وكبر المسلمون وامتاروا أياماً.

### ذكر الوقعة العادلة:

ولما كان يوم الأربعاء العشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة، علم عدو الله أن العساكر تفرقت في أطراف البلاد للعدو، وأن ميمنة السلطان قد خفت، أجمع رأيهم على أنهم يهجمون على طرف الميمنة بغتة، فخرجوا ظهيرة يوم الأربعاء، وامتدوا ميمنة وميسرة وقلباً، وانثوا في الأرض، وكانوا عدداً عظيماً، واستخفوا طرف الميمنة، وكان في طرفها نخيم الملك العادل، فلما بصر الناس بهم خرجوا من خيامهم كالأسود من أجامها، وركب السلطان صلاح الدين رحمه الله ونادى مناديه: ياللاسلام، وركبت الجيوش وطلبت الاطلاب، وكان السلطان أول راكب.

وقال قاضي القضاة بهاء الدين: ولقد رأيتُه وقد ركب من خيمته وحوله نفر يسير من خواصه، والناس لم يستتم ركوبهم، وهو كالفاقدة ولدها الثاكلة، ثم ضرب الكوس فأجابته كوسات الامراء من أماكنها، وركب الناس، وأما الفرنج لعنهم الله، فإنهم سارعوا في القصد إلى الميمنة حتى وصلوا قبل استتمام العساكر حتى وصلوا إلى نخيم الملك العادل، ودخلوا في وطاقه، وامتدت أيديهم في السوق وأطراف الخيم بالنهب والغارة، وقيل وصلوا إلى الخيمة الخاص، وأخذوا من شرايخاناته شيئاً، وأما الملك العادل لما علم بذلك ركب وخرج من خيمته واستركب من يليه من الميمنة كالطواشي قايباز النجمي، ومن يجري مجراه من أسود الاسلام، ووقف وقوف مخادع حتى توغل بهم طمعهم في الخيم، واشتغلوا بالنهب من الاقمشة والفواكه والمطاعم، فعند ذلك صاح العادل بالناس وحمل بنفسه يقدمه ولده الكبير شمس الدين، وحمل بحملته من كان يليه من الميمنة، وهجموا على العدو

هجمة الاسود على فرائسها وأمكنهم الله منهم، ووقعت الكسرة فعادوا يشتدون نحو خيامهم هاربين على أعقابهم، وسيف الاسلام يلتقط الارواح من الاشباح، ويفصل بين الاجساد والرؤوس، ويفرق بين الابدان والنفوس، ولما بصر السلطان بذلك نادى في الناس بالاسلام، يا أبطال الموحدين، هذا عدو الله قد أمكن الله منه، وقد داخلهم الطمع حتى غشيوا خيامكم، فكان من المبادرين إلى إجابته جماعة من بماليكه وخاصته، ثم طلب عسكر الموصل يقدمهم علاء الدين ولد عز الدين، ثم عسكر مصر يقدمهم سنفر الحلبي، وتتابع العساكر وتجاوبت الابطال، ووقف السلطان في القلب، فعند ذلك قامت الحرب على سوقها.

قال الراوي: فلم يك ساعة حتى رأينا القوم ﴿صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية﴾ [الحاقة ٧] وامتدوا مطرحين، أولهم من خيام الملك العادل، وآخرهم عند خيامهم، وكانت المسافة بين المضرين فرسخاً، وربما زاد على ذلك، وقتلى الافرنج مطرحين فيها ولم ينج منهم إلا النادر.

قال قاضي القضاة بهاء الدين: ولقد خضت في تلك الدماء بدابتي فاجتهدت أن أعدهم فما قدرت على ذلك لكثرتهم، وشاهدت فيهم امرأتين مقتولتين، وحكى لي من شاهد فيهم أربع نسوة يقاتلن، وأسرت منهن اثنتان، وأسر من الرجال في ذلك اليوم نفر يسير، فإن السلطان أمر أن لا يستبقى أحد، هذا كله في الميمنة وبعض القلب، وأما الميسرة، فما اتصل الصائح بهم إلا وقد نجز الامر، وكانت هذه الواقعة فيما بين الظهر والعصر، وانفصلت الحرب بعد العصر، ولم يفقد من المسلمين في هذا اليوم سوى عشرة أنفس غير معروفين، وأما أهل عكا فإنهم كانوا يشاهدون الواقعة من أعالي السور، فخرجوا إلى مخيم العدو، وجرى بينهم مقتله عظيمة، وكانت النصر للمسلمين، فأخذوا جمعاً من النسوان

والاقمشة حتى القدور فيها الطعام، واختلف الناس في عدد القتلى منهم فقيل كانوا ثمانية آلاف وقيل سبعة آلاف.

وقال قاضي القضاة بهاء الدين: ولقد شاهدت منهم خمسة صفوف أولها عند خيم العادل وآخرها عند خيامهم، ولقد رأيت انساناً عاقلاً جندياً يسعى بين الصفوف من القتلى ويعددهم، فقلت له: كم عددت؟ فقال إلى هنا أربعة آلاف ونيفاً وستين قتيلاً، وكان قد عدّ صفين وهو في الصف الثالث، لكن ماضى من الصفوف كان أكثر عدداً من الباقي.

ولما كان يوم الخميس الحادي والعشرين من جمادى الآخرة ورد في عصره نجاب من حلب، ومعه كتاب يتضمن أن جماعة عظيمة من العدو الشمالي خرجوا لنهب أطراف البلاد الاسلامية، ونهض العسكر الاسلامي من حلب وأخذوا عليهم الطريق فلم ينج منهم أحد إلا من شاء الله عزوجل، فضربت البشائر، ولم ير يوم أحسن منه، وجاء في بقية ذلك اليوم من اليزك قيباز الحراني، وذكر أن العدو قد سأل من يصل إليهم لسمع منهم حديثاً في سؤال الصلح، لضعف حل بهم، ولم يزل أعداء الله من ذلك الوقت مكسوري الجناح منهاضي الجانب حتى وصل إليهم كند يقال له كندهري.

### ذكر وصول الكندهري:

هذا كان ملكاً من ملوك الافرنج ومن أعيانهم، وصل في البحر في مراكب عدة ومعه من الاموال والذخائر والمير والاسلحة والرجال عدد عظيم، فقوي بوصوله جأش الافرنج وحدثتهم نفوسهم بكبس العسكر الاسلامي ليلاً، وكثر هذا الحديث على السنة المستأمنين والجواسيس، فجمع السلطان الامراء وأرباب الرأي واستشارهم فيما يفعل، وكان آخر الرأي أنهم يوسعون الحلقة ويتأخرون عن العدو رجاء أن يخرجوا ويعدوا عن خيامهم فيمكن الله منهم، ووافقهم السلطان على ذلك، فرحل إلى

جبل الخروبة بالعساكر بأسرها، وكان في يوم الأربعاء السابع والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة، ونزل بقية من العسكر في تلك المنزلة كاليزك مقدار ألف فارس يتناوبون لحفظ النوبة.

هذا والكتب متواصلة من عكا على أجنحة الطيور، وأيدي السباح والمراكب اللطاف تخرج ليلاً وتدخل سرقة منهم، وكان الكندهري المذكور قد أنفق على منجنيق كبير عظيم الشكل على ما نقل الجواسيس والمستأمنون ألفاً وخمسمائة دينار، وأعد له ليقدمه على البلد، ولما رأى المسلمون أنهم سلطوا على البلد المنجنيقات من كل جانب وتناوبوا عليها بحيث لا يتعطل رميها لا ليلاً ولا نهاراً، وذلك في أثناء رجب من هذه السنة، وضيقوا على البلد، حركتهم النخوة الإسلامية، وانفقوا على أنهم يخرجون فارسهم وراجلهم على غرة وغفلة منهم، وكان مقدم العسكر الأسفهلار الكبير حسام الدين أبو الهيجاء المقدم في الكرم والشجاعة، ووالي البلد وحارسه الأمير الكبير بهاء الدين قراقوش، وفتحوا الأبواب وخرجوا دفعة واحدة من كل جانب، ولم يشعر الفرنج إلا والسيف فيهم حاكم، وسهم قضاء الدين فيهم نافذ، وتقدموا إلى أن لجوا في خيامهم، ولما رأوهم كذلك ذهلوا عن المنجنيقات وحراستها، فوصلت إليها شهب الزراقين والنفاطين حتى اضطرت فيها النيران واحترق منها ماشيدته الأعداء في المدة الطويلة في أقرب أوان، وقتل منهم في ذلك اليوم سبعون فارساً، وأسر خلق عظيم، وكان في جملة الأسرى رجل مذكور فيهم ظفر به شخص من آحاد الناس، ولم يعلم بمكانته ولما انفصل الحرب سأل الفرنج عنه هل هو حي أم لا، فعرف الذي عنده أنه رجل كبير، وخاف أن يغلب عليه ويؤخذ منه فسارع إلى قتله فقتله، وبذل الفرنج فيه أموالاً عظيمة، ولم يزالوا يسألون ذلك حتى رموا إليهم رأسه، فضربوا بنفوسهم الأرض، وحشوا على رؤوسهم ووجوههم التراب، ووقعت عليهم بسبب ذلك خدمة عظيمة واستخفهم المسلمون بعد ذلك فهجموا عليهم من كل جانب، ولاسيما العرب،

فإنهم يدفون (٢٥) فيهم من كل ناحية يسرقون وينهبون ويأسرون ويقتلون، فانحلت عزيمتهم وضعفت قواهم، ولاسيما لما أحرق المسلمون ذلك المنجنيق العظيم الذي صنعه الكندھري، كما ذكرنا.

### ذكر وصول البطس من مصر:

كتب الأمير بهاء الدين قراقوش متولي عكا إلى السلطان في العشر الأول من شعبان من هذه السنة أنه لم يبق عندهم من المؤن ما يكفيهم إلى ليلة النصف، فلما وصل الكتاب إلى السلطان أسره في نفسه ولم يبد له أحد، خوفاً من شيوخ ذلك فيبلغ إلى العدو فيقوى على المسلمين، وتضعف القلوب، وكان قد كتب إلى أمير الاسطول بالديار المصرية ليتقدم بمسيره إلى عكا، فوصلت ثلاث بطس ليلة النصف فيها من الميرة ما يكفي أهل البلد طول الشتاء، وهي في صحبة الأمير لؤلؤ الحاجب، فلما أشرفت على الناس، تقدم إليها اسطول الفرنج ليحاجز عن البلد، ويتلف البطس، فاقتتلوا في البحر قتالاً عظيماً، والمسلمون في البر يتهلون إلى الله تعالى عز وجل، والفرنج أيضاً يصرخون في البر والبحر، وقد ارتفع الضجيج، فنصر الله المسلمين، وسلمت مراكبهم وطابت الريح للبطس فسارت فأحرقت المراكب الافرنجية المحيطة بالميناء، ودخلت البلد سالمة، وفرح بها أهل البلد والجيش فرحاً عظيماً، وكان السلطان رحمه الله قد جهز قبل هذه الثلاث بطس المصريات بطسة عظيمة من بيروت فيها أربعمائة غرارة قمح وشيء من الجبن والبصل والشحم والقديد والنشاب والنفط، وكانت هذه البطسة من بطس الفرنج المغنومة، وأمر من فيها من التجار أن يتزويوا بزبي الفرنج حتى أنهم حلقوا لحاهم وشدوا الزنانير، واستصحبوا معهم في البطسة شيئاً من الخنازير، وقدموا بها على مراكب الفرنج، فاعتقدوا أنهم منهم، وهي سائرة كأنها السهم إذا خرج من الرمية، فحذرهم الفرنج غائلة الميناء من ناحية المسلمين، فاعتدروا بأنهم مغلوبون معها والريح قوية

لا يمكنهم أن يقفوا ولا ينصرفوا، وما زالوا كذلك حتى ولجوا الميناء، وأفرغوا ما كان معهم من الميرة، والحرب خدعة.

قال صاحب النوادر: وكان ذلك في العشر الاخير من رجب.

### ذكر احتراق بطسه عظيمة للفرنج:

كان ميناء عكا يكتنفه برجان يقال لأحدهما برج الذبان، فاتخذ الفرنج بطسة عظيمة لها خرطوم وفيه حركات، إذا أرادوا أن يضعوه على كل شيء من الاسوار والابرجة كلبوه فيصل إلى ما أرادوه، فعظم أمر هذه البطسة على المسلمين، ولم يزالوا في أمرها محتارين حتى أرسل الله عليها شواظاً من نار فأحرقها وغرقها، وذلك أن الافرنج أعدوا فيها نفطاً كثيراً وحبباً جزلاً، وأخرى خلفها فيها حطب محض حتى إذا أراد المسلمون المحاققة عن الميناء بمراكبهم أرسلوا النفط على تلك البطسة الحطية فاحترقت وهي سائرة بين بطس المسلمين فتحرقها، وبطسة أخرى لهم فيها مقاتلة تحت قبو قد أحكموه فيها، فلما أرسلوا النفط على برج الذبان انعكس الامر عليهم بقدرة الرحمن وذلك لشدة الهواء تلك الليلة، فما تعدت النار بطستهم فاحترقت، وتعدى الحريق إلى الاخرى فغرقت، ووصل إلى بطسة المقاتلة فتلفت وهلك من فيها، فأشبهوا من سلف من الكفار كما قال تعالى: ﴿يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين﴾ [الحشر: ٢].

### ذكر قصة عيسى العوام رحمه الله:

وكان عواماً، قيم في العوم يقال له عيسى، وكان يدخل إلى عكا بالكتب والنفقات على وسطه ليلاً على غرة من الافرنج، وكان يغوص ويخرج من الجانب الآخر من مراكب العدو، وكان ذات ليلة شد على وسطه ثلاثة أكياس فيها ألف دينار، وكتب مشمعة للعسكر، فنزل في

البحر، فجرى عليه أمر أهلكه، وأبطأ خبره عن المسلمين، وذلك لان عادته أنه إذا دخل البلد أرسلوا طيراً يعرف بوصوله، فلم يجيء الطير فتحققوا أنه هلك، ولما كان بعد أيام بيننا الناس على طريق البحر في البلد إذا البحر قد قذف إليهم ميتاً غريباً فتسارعوا إليه فأخرجوه، فوجدوه عيسى العوام، ووجدوا على وسطه الذهب والكتب المشمعة، وكان الذهب نفقة للمجاهدين، فما رؤي من أدى الامانة في حال حياته، وقدر الله له أداءها بعد وفاته الا هذا الرجل، وكان ذلك في العشر الاخير من رجب من هذه السنة.

### ذكر اشتداد الحصار على عكا:

وفي ثالث رمضان من هذه السنة اشتد الحصار من الافرنج للبلد حتى نزلوا إلى الخندق، فبرز إليهم أهل البلد، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً وتمكنوا من حريق الكبش الذي اتخذوه لحصار الاسوار، وسرى حريقة الى السفود، فارتفعت له لهبة عظيمة في عنان السماء، ثم اجتذبه المسلمون إليهم بكلايب من حديد في سلاسل، فحصلوه عندهم وألقوا عليه الماء البارد، فبرد بعد أيام فكان فيه من الحديد مائة قنطار بالدمشقي.

وقال العماد الكاتب رحمه الله: وعمل الفرنج دبابة هائلة في رأسها شكل عظيم يقال له الكبش، وله قرنان في طول رحين كالعمودين العظيمين الغليظين، وهذه الدبابة في هيئة الخريشت الكبير، وقد سقفوها مع كبشها بأعمدة الحديد، ولبسوا رأس الكبش بعد الحديد بالنحاس، فحاصل الكلام أبطل المسلمون سعيهم في ذلك وأحرقوها كما ذكرنا ولله الحمد.

وفي أثناء ذلك حصل للسلطان سوء مزاج من كثرة ما يكابده من الامور التي هي أمر من الاجاج، فطمع العدو المخذول في الاسلام

فتجرد منهم جماعة للقتال، وثبت آخرون على الحصار، وأقبلوا في عدد كثير، وعدد غزير.

وكانوا صوروا القدس في ورقة عظيمة، وصوروا فيه صورة القمامة التي إليها يجحون ويعظمون شأنها، وفيها قبر المسيح الذي دفن فيه بعد صلبه - على زعمهم الفاسد - وذلك القبر أصل حجهم، وهو الذي يعتقدون نزول النور عليه في كل سنة في عيد من أعيادهم، فصوروا القبر، وصوروا عليه فرساً عليه فارس مسلم راكب عليه، وقد وطئ قبر المسيح، وقد بال الفرس، وأظهروا هذه الصورة وراء البحر في الاسواق والمجامع والقسوس يحملونها ورؤوسهم مكشوفة، وعليهم المسوح وينادون بالويل والثبور، فهاج بذلك خلائق لا يحصون، ولما كثروا على المسلمين رتب السلطان الجيش ميمنة وميسرة وقلباً وجناحين، فلما رأى الفرنج ذلك فروا من موقف الحرب، فقتل منهم خلق كثير وجم غفير، ولما دخل فصل الشتاء وانشمرت مراكب الافرنج عن البلد خوفاً من الهلاك، وبسبب الزمان سأل من في البلد من المسلمين السلطان أن يخرجهم ويريحهم عما هم فيه من الحصر العظيم والمقاتلة ليلاً ونهاراً، وأن يرسل إلى عكا بدلهم، فرق لهم السلطان، وعزم على ذلك، وكانوا قريباً من عشرين ألف مسلم: ماتت أمير ومأمور، فجهز جيشاً آخر غيرهم.

قالوا: ولم يكن ذلك برأي جيد، ولكن ما قصد السلطان إلا خيراً، لان هؤلاء الذين يدخلون البلد جدد الهمم، ولهم قوة العزم، وكانوا في راحة بالنسبة لأولئك، ولكن اولئك كانت لهم خبرة بالبلد والقتال، وكانوا قد تمرنوا على ما هم فيه من المصابرة للاعداء براً وبحراً، وجهزت لهؤلاء الداخلين سبع بطس فيها ميرة تكفيهم سنة كاملة، فقدر الله تعالى أنها لما توسطت البحر واقتربت من مينائها هاجت ريح عظيمة في البحر فتلقت بتلك البطس على عظمها، فاخترت واضطربت وتصادمت وغرقت وغرق من فيها من البحارة جميعهم، وما فيها من الميرة، فدخل

بسبب ذلك وهن عظيم على المسلمين، واشتد مرض السلطان وازداد مرضاً إلى مرضه وكان ذلك عنواناً على أخذ البلد، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وذلك في ذي الحجة من هذه السنة، وكان المقدم على الداخلين إلى عكا الأمير سيف الدين علي بن أحمد المشطوب.

وذكر صاحب النوادر أن دخوله كان يوم الأربعاء السادس عشر من محرم سنة سبع وثمانين وخمسمائة، وفي ذلك اليوم خرج المقدم الذي كان بها وهو الأمير حسام الدين أبو الهيجاء وأصحابه ومن كان بها من الأمراء، ودخل مع المشطوب خلق كثير من الأمراء وأعيان الناس.

### ذكر بقية الحوادث في هذه السنة:

منها أن في يوم الخميس السادس عشر من رمضان من هذه السنة وصل الكتاب على جناح طير من حماه، وكان قد جاء إليها من حلب يذكر فيه أن الأبرنس صاحب أنطاكية خرج بعسكره نحو القرى الإسلامية لشن الغارة عليها فبصرت به العساكر ونواب الملك الظاهر غازي، ولد السلطان، فكمنت الكمنا، وخرجوا عليهم، فلم يشعر الأبرنس بهم إلا والسيف قد وقع، فقتل من عسكره خمسة وسبعون نفراً، وأسر خلق كثير، واستعصم هو بنفسه في موضع يسمى شيجا حتى اندفعوا وساروا إلى بلدهم.

ومنها أن في أثناء العشر الأخير من رمضان ألفت الرياح بطستين فيها رجال وصبيان ونساء وميرة عظيمة وغنم كثيرة، وكانوا قاصدين نحو العدو فغنمهما المسلمون، وكانوا قد ظفروا ببركوس للمسلمين فيه نفقة ورجال أرادوا الدخول إلى البلد، فأخذوه، فوقع الظفر بهاتين جبراً عن ذلك.

ومنها أنه قوي عزم الأفرنج على الخروج إلى جهة المسلمين، وتغير

مزاج السلطان بحمى صفراوية، فاقتضى الحال أن انتقلوا في عشية الاثنين تاسع رمضان من هذه السنة، فنزلوا على أعلى جبل كفر عم ورؤوس التلال للاستعداد للشتاء والاستراحة عن الوحل.

وفي ذلك الزمان مرض زين الدين يوسف بن زين الدين صاحب إربل مرضاً شديداً بحمتين مختلفتين، واستأذن في الرواح فلم يؤذن له، ثم استأذن في الانتقال إلى الناصرة فأذن له في ذلك، وأقام بالناصره أياماً وهو مريض، فاشتد به الأمر إلى ليلة الثلاثاء الثامن والعشرين من رمضان من هذه السنة، ثم توفي إلى رحمة الله، وعنده أخوه مظفر الدين، وحزن الناس عليه لشبابه وغربته، وأنعم السلطان على أخيه مظفر الدين ببلده إربل واستنزله عن بلاده التي كانت في يده، وهي حران والرها وما يتبعها من البلاد والأعمال، وضم إليه شهرزور أيضاً، واستدعى الملك المظفر تقي الدين عمر ابن أخيه شاهنشاه ليكون نازلاً مكانه، وأقام مظفر الدين كوكبري بن زين الدين علي بالمعسكر المنصور إلى قدوم تقي الدين، وقدم ضاحي النهار الثالث من شوال من هذه السنة، وفي صحبته معز الدين سنجرشاه ابن سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي صاحب الجزيرة، إذ ذاك، ثم تكرر سؤال عز الدين هذا في طلب الدستور، والسلطان يعتذر إليه بأن رسل العدو متكررة في معنى الصلح فلا يجوز أن تنقص العساكر حتى يتبين على ماذا ينفصل الحال من سلم أو حرب، وهو لا يألوا جهداً في طلب الدستور، إلى أن كان يوم عيد الفطر من هذه السنة، وحضر سحرة ذاك اليوم في باب خيمة السلطان فاستأذن في الدخول فلم يؤذن له، وكرر الاستئذان فأذن له، فدخل واستأذن في الرواح شفاهاً، فذكر له السلطان وجوهاً تمنع من الرواح، فانكب على يده وقبلها كالمودع له، ونهض من ساعته وسار وأمر أصحابه أن اكفئوا القدر وفيها الطعام واقلعوا الخيام، وتبعوه على ذلك، فلما بلغ السلطان إليه ذلك، كتب إليه: «إنك قد قصدت الانتفاء إليّ ابتداءً وراجعتني في ذلك مراراً، وأظهرت الخيفة على نفسك وبلدك

من أهلك، فقبلتك وأويتك، ونصرتك، فبسطت يدك في أموال الناس ودمائهم وأعراضهم،، فنذت إليك ونهيتك عن ذلك مراراً فلم تنته، فاتفق وقوع هذه الواقعة للاسلام فدعوناك فأتيت بعسكر قد عرفته وعرفه الناس، وأقمت هذه المدة وقلقت هذا القلق، وانصرفت عن غير طيب نفس، وغير فصل حال مع العدو، فانظر لنفسك وانظر من تنتمي إليه غيري، واحفظ نفسك ممن يقصدك فما بقي لي إلى جانبك التفات».

وسلم الكتاب إلى نجاب، فلحقه قريباً من طبرية، فقرأ الكتاب ولم يلتفت إليه، وسار على وجهه، وكان الملك المظفر تقي الدين قد استدعي إلى الغزاة - كما ذكرنا الآن - فلقيه في عقبة فيق، وهو محث، وليست عليه امارات حسنة، وسأله عن حاله ففهم من كلامه أنه سار والسلطان غير راض عليه، فقال له: المصلحة أن ترجع إلى خدمته وتلازمها إلى أن يأذن لك السلطان، فأنت صبي لاتعلم غائلة هذا الامر، فلم يلتفت إليه، وأصر على الرواح، فخشن عليه الملك وقال: ترجع من غير اختيار، وكان تقي الدين شديد البأس مقداما على الامور، فلما علم معز الدين أنه قابضه إن لم يرجع، فرجع باختياره، ورجع معه حتى أتى العسكر، وخرج الملك العادل إلى لقاء الملك المظفر، فدخلا على السلطان وسألاه الصفح عنه فعفا عنه، وطلب أن يقيم في جوار تقي الدين خشية على نفسه، فأذن في ذلك، وأقام في جواره إلى حين ذهابه، وكذلك عماد الدين صاحب سنجار، كان قد أصر على الرحيل، ودخل على السلطان، فقبل يده وسار من ساعته، فكتب السلطان وراءه كتاباً، وكتب بيده في ظهره:

من ضاع مثلي من يديه

فليت شعري ما استفادا

فوقف عماد الدين عليه وانقطعت مراجعته بالكلية.

ومنها: أنه تواصلت الاخبار بضعف العدو المخذول، ووقع الغلاء في بلادهم وعسكرهم حتى أن الغرارة من القمح بلغت في أنطاكية ستة وتسعين ديناراً صورية، ولايزيدهم ذلك إلا صبراً واصراراً وعناداً.

ومنها: أنهم ضاق بهم الامر وعظم الغلاء فخرج خلق عظيم مستأمنين لشدة الجوع، وقد ذكرنا أن السلطان كان قد عرض له مرض فطمعوا بذلك وظنوا أنه لا يستطيع النهوض فخرجوا يوم الاثنين الحادي عشر من شوال من هذه السنة بخيلهم ورجلهم متحملين أزواداً وخيماً، وكان خروجهم إلى الآبار التي استحدثها المسلمون تحت تل العجول لما كانوا نازلين عليه، فأخذوا معهم عقيق أربعة أيام، فأخبر السلطان بخروجهم على هذا الوجه، فأمر اليزك أن ينزاحوا من بين أيديهم إلى تل كيسان، وكان اليزك على تل العياضية، وكان نزول العدو على الآبار بعد صلاة العصر من اليوم المذكور، وباتوا تلك الليلة واليزك حولهم جميع الليل، فلما طلع الصبح جاء من أخبر السلطان رحمه الله بأنهم قد تحركوا للركوب، وكان رحمه الله قد أمر الثقل في أول الليل أن يسيروا إلى الناصرة والقيمون، فرحل الثقل وبقي الناس وأمر العسكر أن يركبوا ميمنة وميسرة وقلباً تعبئة القتال، وركب السلطان، وصاح الجاوش بالناس فركبوا، وسار حتى وقف بتل من جبال الخروبة، وابتدأت الميمنة بالمسير، فساروا حتى بلغ آخرها الجبل، وسارت الميسرة حتى بلغ آخرها إلى النهر، وقربت من البحر، وكان في الميمنة ولده الملك الأفضل صاحب دمشق وولده الملك الظاهر غازي صاحب حلب، وولده الملك الظافر صاحب بصرى، وولد عز الدين صاحب الموصل علاء الدين خرم شاه، ثم الملك العادل أخوه في طرفها، ويليه قريب منه حسام الدين بن لاجين والطواشي قايماز النجمي وعز الدين جرديك النوري، وحسام الدين بشارة صاحب نابلس، وبدر الدين دلدرد صاحب تل باشر الياروقي وجمع كثير من الامراء، وكان في الميسرة عماد الدين زنكي صاحب سنجار، وابن أخيه معز الدين صاحب الجزيرة، وفي طرفها

الملك المظفر تقي الدين ابن أخيه، وسيف الدين علي بن المشطوب وجميع المهرانية والهكارية وخشترين وغيرهم من الأمراء الاكراد وفي القلب الحلقة السلطانية، وأمر السلطان أن يخرج من كل عسكر جمع من الجاليش ليدور حول العدو واليزك معهم، وأخفى بعض الاطلاب وراء التلال، عساهم يجدون غرة من العدو، ولم يزل عدو الله يسير والناس يقاتلونهم من جميع جوانبهم، ولم يزالوا سائرين حتى نزلوا على تل هناك وضربوا خيامهم ممتدة منه إلى النهر، وجرح منهم في ذلك اليوم خلق عظيم، وقتل أيضاً خلق، وكانوا إذا جرح واحد منهم حملوه، وإذا قتل واحد منهم دفنوه وهم سائرون حتى لا يظهر قتيل ولا جريح، وكان نزولهم يوم الثلاثاء بعد الظهر، وتراجعت العساكر عنهم إلى مواطن المصابرة ومواقف الحراسة، وتقدم السلطان إلى الميسرة أن تستدير بهم بحيث يقع آخرهم على البحر، والميمنة تستدير بالنهر من الجانب الشرقي، والجاليش يقاتلونهم ويرمونهم بالنشاب بحيث لا ينقطع النشاب عنهم أصلاً، وبات الناس تلك الليلة على هذا المثال، وسار السلطان إلى رأس جبل الخروبة الذي كان نازلاً عليه في العام الماضي، فنزل في خيمة لطيفة والناس حوله في خيم بمرأى العدو، وأخبارهم تواصل إليه في كل ساعة إلى الصبح.

ولما كان الصبح يوم الاربعاء وصل من خبر أنهم تحركوا للركوب عند الصبح، فركب السلطان وذلك في صبيحة يوم الأربعاء الثالث عشر من شوال ورتب الاطلاب، وسار حتى أتى قرب جبال الخروبة إليهم بحيث يشاهد جميع أجوالهم، وكان السلطان رحمه الله ملثا المزاج، ضعيف القوة، قوي القلب، ثم بعث إلى العساكر وأمرهم بالمقاتلة والمضايقة والحملة عليهم من كل جانب، وأمر الاطلاب أن تحتاط بهم بحيث أن لا تكون قريبة ولا بعيدة ليكونوا رداءً للمقاتلة الى ان تضاحى النهار، وساروا على شاطئ النهر من الجانب الغربي يطلبون جهة خيمهم والقتال يشتد عليهم من كل جانب، فاشتدوا في قتالهم من سائر

الجوانب إلا من جانب النهر، والتحم القتال، فصرع منهم خلق عظيم وهم يدفنون قتلاهم ويحملون جرحاهم، وقد جعلوا راجلهم سوراً لهم تضرب الناس بالزنبورك والنشاب حتى لا يتركون أحداً يصل إليهم، وخيالتهم يسرون في وسطهم بحيث لم يظهر منهم أحد في ذلك اليوم أصلاً والكوسات تخفق والبوقات تنفر والاصوات بالتهليل والتكبير، هذا والسultan يمد الجاليش بالاطلاب والعساكر إلى عنده حتى لم يبق معه إلا نفر يسير، وعلم الفرنج مرتفع على عجلة، وهو مغروس فيها، وهي تسحب بالبغال، وهم يذبون عن العلم، وهو عال جداً كالمنارة، حرفيه بياض ملمع بحمرة على شكل الصليبان، ولم يزالوا سائرين على هذا حتى وصلوا وقت الظهر إلى قبالة جسر دعوق، وقد أجمعهم العطش، وأخذ منهم التعب، واثختهم الجراح، واشتد بهم الامر، ولقد قاتل المسلمون في ذلك اليوم قتالاً شديداً، وأعطوا الجهاد حقه، وهجموا عليهم هجوماً عظيماً واستداروا بهم كالحلقة، وهم لا يظهرون من رجالتهم ولا يحملون، وجرح في ذلك اليوم جماعة، منهم: اياز الطويل رحمه الله، وجرح جراحات معدودة وهو مستمر على القتال، وجرح سيف الدين يازكوج جراحات متعددة وهو من فرسان الاسلام وشجاعانه، ولم يزل الناس حولهم في ذلك اليوم حتى نزلوا ظهيرة ذلك النهار عند جسر دعوق، وقطعوا الجسر وأخربوه خوفاً من عبور الناس إليهم، ورجع السلطان الى تل الخروبة، وأقام عليهم يزكاً يحرسهم، ويات وأخبارهم تتواتر عليه حتى الصباح، وعزم تلك الليلة على كبس بقيتهم في الخيم، وكتب إلى البلد - أعني عكا - يعرفوا بذلك حتى يخرجوا هم من جانب، وعسكر السلطان من جانب، فلم يصل من أهل البلد كتاب، فرجع عن ذلك العزم بسبب تأخير الكتاب.

ولما كان صباح الخميس رابع عشر شهر شوال وصل من أخبر أن العدو في الحركة للرحيل، فركب السلطان وطلب الاطلاب، وكف الناس عن القتال خشية أن يغتالوا، وأوقف الاطلاب في الجانب الشرقي من

النهر يسرون قبالة العدو، وكان ممن جرح من مقدميهم في هذه السرية الكندهري والمركيس، وتخلف ابن ملك الالمان في الخيم مع جمع كبير منهم، ولما دخل العدو إلى خيمهم كان لهم بها أطلاب مستريحة فخرجت على اليك الاسلامي، وحملت عليهم، وانتشب القتال بين اليك وبينهم، وجرى فيه قتال عظيم قتل فيه من العدو وجرح خلق عظيم، وقتل من المسلمين ثلاثة نفر، وقتل منهم شخص كبير فيهم مقدم عندهم، وكان على حصان عظيم ملبس بالزردي إلى حافره، وكان عليه لبس لم ير مثله، وطلبوه من السلطان بعد انفصال الحرب، فدفع إليهم جثته، وطلب رأسه فلم يوجد، وعاد السلطان إلى مخيمه، وأعيد الثقل إلى مكانه، وعاد كل قوم إلى منزلته، ولما كان يوم الجمعة الثاني والعشرين من شوال من هذه السنة رأى السلطان أن يضع للعدو كميناً، فأخرج جمعاً من كفاة العسكر وشجعانهم وأبطالهم، وأمرهم أن يسيروا في الليل، ويكنموا في سفح تل شمالي عكا بعيداً عن عسكر العدو، وأمرهم أن يظهر منهم نفر يسير ويقصدونهم في خيمهم، حتى إذا خرجوا انهزموا بين أيديهم نحو الكمين، ففعلوا ذلك، وساروا حتى أتوا التل المذكور ليلاً، فكنموا تحته، ولما علا نهار السبت الثالث والعشرين من شوال خرج منهم نفر يسير على خيل جياد، وساروا حتى أتوا مخيم العدو، ورموهم بالنشاب فانتخى منهم مقدار مائتي فارس، وخرجوا إليهم شاكين في السلاح على خيل جياد، وبعده تامه، وليس معهم راجل واحد، وداخلهم الطمع فيهم لقلتهم، فانهزموا بين أيديهم وهم يقاتلونهم، حتى أتوا موضع الكمين، فخرج عليهم أبطال الموحدين، وصاحوا فيهم صيحة رجل واحد، وهجموا عليهم هجوم الأسد على فرائسها، فثبتوا وصبروا وقاتلوا قتالاً شديداً، ثم ولوا منهزمين، فمكّن الله المسلمين منهم، ووقعوا فيهم ضرباً بالسيف حتى هلك منهم جمع عظيم، واستسلم الباقون للاسرى، فأسروهم وأخذوا خيلهم وعددهم، وجاء البشير إلى السلطان، فارتفعت الاصوات بالتهليل والتكبير، وركب ملاقاتهم.

قال قاضي القضاة بهاء الدين: وكنت في خدمته حتى أتى تل كيسان واعتبر الاسارى، وكان فيهم مقدم عسكر الافرنسيس وخازن الملك أيضاً، ثم نزل السلطان في خيمه فرحاً مسروراً، وأمر مناديا فنادى: ألا من كان عنده أسير فليحضر به، فأحضر الناس أسراهم، وأكرم المقدمين منهم، وألبس مقدم عسكر الافرنسيس فروة خاصاً، وأمر لكل واحد من الباقيين بفروة جرخية فإن البرد كان شديداً، وكانوا عرايا موتى من البرد، وأحضر لهم طعاماً فأكلوه، وأمر لهم بخيمة نصبت قريباً من خيمته، وكان يكارمهم في كل وقت، ويحضر المقدم على الخوان في بعض الاوقات، ثم أمر بتقييدهم وحملهم إلى دمشق، وأذن لهم أن يرأسلوا أصحابهم، وأن يحضروا لهم من عسكرهم ما يحتاجون إليه من الثياب وغيرها، ففعلوا ذلك، وساروا إلى دمشق، وحبسوا هناك.

ومنها أن في اليوم التاسع من ذي الحجة من هذه السنة سقطت قطعة من سور عكا، وهي قطعة عظيمة.

وفي النوادر كان ذلك ليلة السبت السابع من ذي الحجة، فوقعت بثقلها على الباشورة فهدمت أيضاً منها قطعة عظيمة، فداخل العدو الطمع، وجاءوا إلى البلد كقطعة الليل المدلهم من كل جانب، فقام أهل البلد بهمم عالية، فقتلوا منهم جماعة، وجرحوا خلقاً عظيماً حتى أسوا من أن ينالوا شيئاً من البلد، ووقف المسلمون موضع القطع كالسد، وجمعوا جميع من في البلد من البنائين والصناع، ووضعوهم في ذلك المكان وجموهم بالنشاب والجروح والمناجيق، فما مرت ليال يسيرة حتى فرغوا من بنائها بأحسن مما كان.

ومنها أنه وقع وباء عظيم في الجيشين: المسلمين والكافرين، وكان السلطان يقول في ذلك:

## اقتلوني ومالكاً واقتلوا مالكامعي

ومنها أن في شهر ذي الحجة قدم القاضي الفاضل من الديار المصرية على السلطان، وكان قد طال شوق كل منهما إلى صاحبه، فأفضى كل واحد منهما إلى الآخر ما كان يسره ويكتمه من الآراء التي فيها مصالح المسلمين، وقدم وزير الصدق على السلطان الموفق، قدس الله روحهما.

ومنها أن في يوم الاثنين الثاني والعشرين من ذي الحجة عاد المستأمنون من الفرنج الذين أنهضهم السلطان في براكيس ليغزوا في البحر، ويكونوا أيضاً جواسيس للمسلمين، فرجعوا وقد غنموا، وذكروا أنهم وقعوا بحرقاة كبيرة ومعها براكيس، وفيها تجار معهم أموال لا تحصى، فأسروا التجار، وأخذوا الأموال وجذبوها إلى الساحل، فأنعم السلطان عليهم بهذه الأكساب، فلما رأوا ذلك من السلطان أسلم أكثرهم، وكانوا قد أحضروا برسم الهدية مائة فضة عظيمة وعليها مكبة بقيمة عالية، ومعها طبق يياثلها في الوزن، وكل فضتها قاربت قنطاراً، فقال السلطان: خذوها فأنتم بها أولى.

وقال صاحب النوادر: وكان قد استأمن من الفرنج خلق عظيم أخرجهم الجوع إلينا، وقالوا للسلطان: نحن نخوض البحر في براكيس ونكسب من العدو، فيكون المكسب بيننا وبين المسلمين، فأذن لهم في ذلك وأعطاهم براكيس، فساروا، ثم ذكر البقية مثلما ذكرنا.

قلت: البراكيس جمع بركوس، وهو المركب الصغير.

وفيها أن في الرابع والعشرين من ذي الحجة أخذ من الفرنج بركوسان فيها نيف وخمسون نفرًا، وفي الخامس والعشرين منه أخذ أيضاً بركوس واحد فيه من الفرنج مقدمون وروس وهم نيف وعشرون، منهم أربعة

خيالة، ومعهم ملوطة مكللة باللؤلؤ بأزرار من الجواهر، قيل إنها من ثياب ملك الألمان، وأسر فيها رجل كبير قيل إنه ابن أخيه، وهو كبير الشأن.

ومنها أنه لما هجم الشتاء وهاج البحر أمنت أهل عكا من أن يبالح العدو في الحصار، وذلك من شدة الأمطار وتواترها، فعند ذلك أذن السلطان رحمه الله للعساكر الإسلامية في العود إلى بلادهم ليستريحوا ويريحوا خيولهم إلى وقت العمل، فكان أول من سار عماد الدين صاحب سنجار لما كان عنده من القلق في طلب الدستور، وكان مسيره يوم الاثنين الخامس عشر من شوال، وسار عقيبه في ذلك اليوم ابن أخيه سنجرشاه صاحب الجزيرة، وذلك بعد أن أفيض عليهما من التشريف والانعام والتحف بما لم ينعم بها على غيرهما، وسار علاء الدين ابن صاحب الموصل في مستهل ذي القعدة من هذه السنة مشرفاً مكرماً، معه التحف والطرائف، وتأخر من العساكر الملك المظفر تقي الدين إلى أن دخلت سنة سبع وثمانين، وتأخر أيضاً ولد السلطان الملك الظاهر غازي صاحب حلب إلى أن سار إلى حلب ضاحي نهار الأربعاء تاسع المحرم من السنة الآتية.

وسار الملك المظفر في ثالث صفر من السنة الآتية وهي سنة سبع وثمانين، ثم اشتغل السلطان بإدخال البدن في البلد، وأخرج من كان بها من الأمراء الذين طالت شكواهم إلى السلطان من طول الحصار وملازمة القتال ليلاً ونهاراً، وأمر السلطان بإدخال المير والذخائر والنفقات والعدد إليها، وكان مقدم بها يومئذ الأمير حسام الدين أبو الهيجاء، فخرج هو وأصحابه ومن كان بها من الأمراء، وكان مقدم الداخلين من الأمراء الأمير سيف الدين أحمد بن علي المشطوب، وكان دخولهم في يوم الأربعاء السادس عشر من المحرم من السنة الآتية، وأخذ كل أمير معه ميرة سنة كاملة، وانتقل الملك العادل بعسكره إلى حيفا على

شاطيء النهر، وهو الموضع الذي تحمل منه المراكب، وتدخل إلى البلد، وإذا خرجت تخرج إليه، وأقام ثمة يحث الناس على الدخول، ويجرس المير والذخائر لئلا يتطرق إليها من العدو من يتعرض لها، وكان مما دخل إليها سبع بطس ملووءة ميرة وذخائر ونفقات كانت وصلت من مصر، وكان السلطان قد عينها من مدة مديدة، وكان دخولها يوم الاثنين الثاني من ذي الحجة من هذه السنة، أعني ست وثمانين، ولما علم العدو بذلك، وهم القائلون من جانب البحر اجتمعوا في خلق عظيم وزحفوا على البلد من جانب البر زحفة عظيمة وقاربوا الأسوار وصعدوا في سلم واحد، فاندق بهم السلم، فتداركهم أهل البلد فقتلوا منهم خلقاً عظيماً، وعادت بقيتهم خائبين خاسرين، وأما البطس فإن البحر هاج هياجاً عظيماً فضرب بعضها ببعض على الصخر، فهلكت وهلك جميع ما كان فيها، وهلك فيها خلق كثير، قيل كانت عدتهم ستين نفرًا، وكانت فيها ميرة عظيمة لو سلمت لكانت كفت البلد سنة كاملة، ودخل على المسلمين بذلك وهن عظيم، وحزن السلطان حزناً شديداً، وكان ذلك أول علامة أخذ البلد، والظفر به.....

### ذكر من توفي فيها من الأعيان

الأمير زين الدين يوسف بن زين الدين علي كوجك بن بكتكين صاحب إربل، وهو أخو مظفر الدين بن زين الدين، كان عند السلطان صلاح الدين في هذه السنة على الخروبة، فمرض في رمضان، وارتحل من الخروبة إلى الناصرة، فأقام يمرض نفسه، وكان عنده أخوه مظفر الدين يمرضه، فيقال إنه سقاه سماً فمات، وظهرت على مظفر الدين أمارات ذلك، فإنه لم يكثرث لموته ولا تأسف عليه، وبلغ السلطان فحزن عليه وبكى لأنه كان صاحبه ومصافيه وشاكره وداعيه، وحزن المسلمون عليه لمكان عفته وشبابه وغرته، ظنا منا أنه قد حزن عليه حزن الأخ على أخيه، [ وقصدناه معزين ] فكأننا جننا نهنيه، وإذا به مشغول عنه

بِحيازة أمواله وأسبابه، والقبض على عماله وكتابه، ثم أرسل مظفر الدين الى السلطان يطلب منه إربل، وينزل عن حران والرها، فأجابه الى ذلك وسأله كتابا الى صاحب إربل في هذا المعنى، وأضاف اليه شهرزور واعمالها.

وقال ابن كثير: وارتجع ما كان بيد مظفر الدين وهو : حران والرها وسميساط، وأعطاهها الملك المظفر تقي الدين عمر زيادة على ما بيده ، وهو ميفارقين، وفي الشام حماه ومعرة النعمان وسلمية ومنبج وقلعة نجم وجبله واللاذقية وبلاطنس وديار بكر (٢٦).

الأمير سواز: استشهد على عكا في هذه السنة، وكان من مماليك السلطان الخواص.

وقال العماد: استشهد على عكا سبعة من الأمراء من جملتهم سوار المذكور، وكذلك استشهد عدة من الاكراد وقال: استشهد في اليوم التاسع من جمادى الأولى من هذه السنة....

ملك الألمان: الذي أقبل في مائتي ألف مقاتل ، وقيل في ثلاثمائة ألف مقاتل كما ذكرنا، وقد أهلكه الله بالغرق كفرعون، كما ذكرنا.

ابن ملك الألمان: الذي تولى بعد هلاك أبيه على طرسوس، هلك في آخر السنة، لعنه الله.

وقال العماد: وهلك ابن ملك الألمان بعلة الجوف ولعله من مرض الخوف في ثاني عشر ذي الحجة من هذه السنة، وأدرك أباه في الدرك الأسفل من النار وأبصر في جهنم مصائر أمثاله من الكفار، وزاد لهلاكه ألم الألمانية، وانسد بموته فرج الأفرنجية، وتبعه في السفر إلى سقر كند كبير يقال له كند أرناط دافع القدر فما قدر، وهلك منهم بالأمراض المختلفة العدد الكثير، لعنهم الله تعالى.